خُلِقَ إنسانًا

(شيزوفرينيا)

عنان رضا محروس

رواية
الطبعة الثانية
2021

عنان رضا محروس

خُلِق إنسانًا

(شيزوفرينيا)

رواية

(طبعة ثانية منقّحة 2021)

التصنيف

المملكة الأردنية الهاشمية رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (٢٠٢١/٨/٤٩٠١)
٨١٣,٩ المحروس عنان "محمد رضا" خلق إنسانا/ عنان "محمد رضا" المحروس.-ط٢؛مزيدة ومنقحة .- عمان:المؤلف، ٢٠٢١ ( ) ص ر.إ. : ٢٠٢١/٨/٤٩٠١. الواصفات: /القصص العربية //الأدب العربي//العصر الحديث/ يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

ISBN 978-9923-00-053-3ردمك

تنسيق وتنضيد:محمد فتحي المقداد

إهـداء

إلى كل من وصَمهُ الزمان بعسر الحال، فاختار معتنقًا كسرة خبزٍ، على كتابٍ.

إلى كلِّ مؤسسة ترعى حقوق الطفولة، وتحميها، شكرًا ولكن، لا يكفي.

إلى كلِّ محسن كريم ذي قلب رحيم، أماط الأذى عن روح مكروب، ولو لبُرهة من الزمن.

عنان

شـكر

" الأشياء التي لا يُعبر عنها بالكلمات، ندركها بالصمت".

ثمانية وعشرون حرفًا، لا تكفي امتنانًا وثناء، لمن تجاوز معي محيطًا من العقبات، لنصل معًا إلى رصيف الدهشة.

إلى من يقبع الكون برحابةٍ، في اتساع صدره وصبره. إلى شريك الحياة وما بعد الحياة، محمد، بوركت.

عنان

الفصل الأول

(آدم)

1. بداية النهاية:

تجاوزت الساعة الثانية صباحًا بعد منتصف الليل، يُعلن التقويم المثبت على الحائط، التاريخ المتكرر المقيت: 31\12\2018، كما قُدر ليوم ميلادي أن يكون، وأطلقوا عليّ اسمًا، آدم!. أحاول أن أرفع سقف توقعاتي بالتقويم السنوي، علّهُ يُلغي هذا التاريخ بقرار كوني، فيخذلني كل سنة مرارًا وتكرارًا.

أرمم ذاكرتي علها تتجاوز الأيام، فيقتل أحاسيسي البشرية واقعي المتوحش وتئن ذكرياتي أكثر وأكثر، نعم اليوم بلغت الأربعين: "يُقال، الأربعون عمرٌ مهم جدًا، سن الارتقاء".

النبي محمد – صلى الله عليه وسلَم - كان في الأربعين عندما نزل عليه الوحي، وخرج المسيح – عليه السلام – إلى القفر أربعين يومًا وليلة، وواعد موسى – عليه السلام - ربه أربعين، ومدة الحزن أربعون يومًا، ويحتفلون بمرور أربعين يوم على قدوم المولود، حتى أن بوذا تأمل تحت شجرة الزيزفون أربعين، وعندما تعشق يجب أن تنتظر أربعين حتى تتأكد من حقيقة مشاعرك.

إذن هناك قوة ترافق العدد أربعين، قوة لا أشعر بها أبدًا.

لم يبادرني النوم بإغفاءة إلا ساعة واحدة فقط، استيقظت قبل أن أسمح لخيوط الشمس بإيقاظي. وهل لكوكب هائل ملتهب، أن ينقاد لرغبة كائن طيني ضعيف مثلي من كوكب الأرض، فيختفي صاغرًا لمشيئتي أربعًا وعشرين ساعة فقط؟ حتى ينتهي نهاري الكئيب!

أعاني الليلة من إحباط كوني يبعث في جسدي الضعف، لكنه على الضد ينشط ذاكرتي فتعدو أسرع بشريط عمري، وكأنه غزال يعدو بسرعة البرق فارًا من أسد جائع.

تتماثل لحظة شروق يومي وغروبه، فأنا على يقين بما سيحدث فيه. ستراودني كوابيس الماضي، جمرات تحرقني لم يعالج ندوبها زوجة محبة، ولا ثراء أعيش بإطار خدمه وحشمه.

حتى شوارع بيروت، باريس الشرق الأوسط، شاركت اليوم بالمؤامرة الدنيئة ضدي. صمت يكاد يتجاوز منطقتي إلى أن يشمل الكون. هادئة الشوارع على غير عادتها رغم أنها تتلألأ زهوًا، تحضنها الجبال والبحر في آن واحد.

أستغرب كيف ساد الصمت المطبق فجأة، في قلب بيروت النابض بالحياة؟. كيف سكن كل شيء وأصبح أصنامًا في متحف مفتوح كبير، أين ديناميكية شعب بيروت، أين ذهبت الحياة والسهر؟

بعد قليل سينهك ضلوعي التعب، فأنام ولا أستيقظ إلا بتاريخ اليوم الذي يليه، كما في كل سنة.. يا إلهي!. هل أنا أختنق؟. أم هو وسواس أقرب إلى الحلم؟

شعور غريب يحتويني، يبدو أنني أحتاج قليلاً من الماء. ها هي ثلاجة غرفة نومي تبعد عني خطوات، أحتفظ فيها ببعض المشروبات لتعينني على لحظات خلوتي، عندما أرفض مغادرة غرفتي أحيانًا معتصمًا ليوم أو يومين.

أترك كل شيء وراء ظهري مهما كانت الأمور ملحة، ولا ألتفت قاصدًا التجاهل، مهما كانت أهمية من طلبني ولِمَ طلبني.

تجرعت بعض الماء، مذاقه أُجاجًا زاد من جفاف حلقي. غريب! هل يا ترى انتهت مدة صلاحيته؟ أم أن زوجتي أوصت السائق بإحضار نوعية أخرى، لشركة تمتهن الغش والخداع؟

لم أرتوِ، بل على العكس زادني الماء عطشًا. أشعر بألم في باطن قدميّ كأنه وخز الإبر. تململت ساقيّ معترضة، تلح عليّ بالعودة للاستلقاء.

أميال تفصلني عن سريري، في طريق عودتي لمحت ظلاً بالمرآة المعلقة على الحائط، مرآة كبيرة مرصعة بإطار ذهبي أنيق، لم أجد نفسي فيها أبدًا، نظرت بشغف أكبر، فلمحت ظلاً لرجل أربعيني بدأ الشيب يغزو مفرقه، فيحيل لون الشباب إلى لون باهت أبيض، ينذر بقرب دنوه من أزمة منتصف العمر، لكن بشرته برونزية جميلة. عيناه الخضراوان مصدر جاذبيته منذ طفولته، جاذبية النمور.

ولِمَ لا؟

واللون الأخضر لون الخصوبة والحياة، ويقال إن أصحاب العيون الخضراء النادرة، هم أشد بني البشر حساسية وإخفاء للألم. ما زال ذلك الظل يحمل بنية قوية، تجذب اهتمام من يراها.

لم أملك إلا أن أبتسم للخيال، ابتسامة صفراء يعلوها كل صدأ الكون وقيحه، ممزوجة بحقد وغل جعلت أسناني تصطك غيظًا.

تابعت المسير إلى سريري، استلقيت وكأنني أعيد ترتيب جدولي الزمني في إرهاق جسدي وفكري، لم يكن عقلي ليحتمل ذهانه. ما بال سريري الواسع يشدني ويشدني، يعصرني بقوة، وأنا أبذل جهدًا في مقاومة حبسه المفاجئ لضلوعي.

أريد أن أحرر نفسي من أقفال تخدر جسدي، وتجعلني كنملة قيدوها بجنازير، وأقفال تصلح لفيل.

ولكن عبثًا أحاول، وها أنا أستسلم رويدًا، رويدًا.

***

2.الميلاد:

أطلقوا عليَّ اسم آدم، جاهلاً سبب التسمية، فكلنا بالنهاية بني آدم. لا أعلم إذا أردنا أن نفكر في وعينا الذاتي كشيء له بداية في الزمان، فمن أين يجب أن نبدأ؟. في اعتقادي يجب أن يبدأ الوعي من اللحظة التي نتذكر بها أنفسنا، وما حولنا جيدًا.

استيقظتُ صباحاً على صوت أمي، بنبرة تحمل القسوة والتهديد: آدم استيقظ، أصبح عمرك ست سنوات، ستبدأ العمل داخل البيت، كلنا نعمل ولن نطعمك مجانًا منذ اليوم، هيّا نظف الحمام والمطبخ واغسل ملابسنا.

هكذا كانت مراسم احتفالي بعيد ميلادي السادس، وأدواته مكنسة وممسحة قذرة. وقفت بسرعة على أطراف أصابعي خائفًا، وكأني أقف على أطراف جفوني التي ما زالت غافية، وأخرس الرعب صوتي في

حلقي، إلى أن بدا للسامع وكأنني أقول: حاضر، وهي الكلمة الوحيدة المسموحة، التي اعتدت التلفظ بها بين أسرتي.

رميت الغطاء البالي الذي لا يقي من حر أو برد، على فراش أرضي رث، هرب من نتانته حتى العث والقمل. تنحيت جانبًا، حتى لا تطأ قدمي أشباحًا تسكن معي طوال الليل، حتى خيوط العنكبوت التي تزين سقف بيتنا الفقير، تحولت إلى حبال متينة تهدد بشنقي في الظلام.
حاولت أن أتنفس بعمق فلم أستنشق إلا الغبار، نظرت إلى الرصيف عبر زجاج الغرفة المكسور، فلم تبدُ لي أقدام البشر التي أراها كل يوم، ذاهبة أو قادمة من العمل، أرى الأقدام ولا أرى الوجوه.

سكنّا في تسوية تحت الأرض، لا تسمح لنا إلا برؤية أنصاف الأجساد، وكأنهم مصابون بخلل جيني وراثي. يسكنون سطح الأرض ومعظمهم لا يليق بهم إلا جوفها، بشرٌ يتباهون بأنصاف أجسادهم السفلية.

هم قومٌ كأَمَّة (النسناس)، دون منازع تكثر فيهم الأقوال والأساطير، فلا تعلم هل يسيرون على وهم، أم أن الوهم والمجون هو الذي يسيرهم؟

الرصيف موحش جدًا هذا الصباح. هل أيقظتني أمي مبكرًا؟. لا أظن، إنه نفس التوقيت المعتاد ولكن الناس ما زالوا يغطون في النوم، فيوم عطلتهم الأسبوعية، يقضون معظمها في سبات جسدي وروحي والنوم سيدهم، غير آبهين بأن كثرة النوم تميت القلب، وتورث الغفلة والقسوة. وأن قلَّته إن دلت على شيء؛ فإنها تدل على ذكاء صاحبه، وتحليله الدائم للأمور، وتساؤله حول الكون وتفكيره الإبداعي في ملكوت الله. التفكير أرقى صفة يتصف بها الإنسان، وهي الإشارة الوحيدة بأن هناك خلايا في العقل ما زالت تتنفس.

لكن... ما دام اليوم عطلة رسمية، فما الذي جعل أمي تذهب إلى العمل؟ وأي عمل هذا الذي تذهب إليه والناس نيام؟. هي المرة الأولى

التي تساءلت فيها عن عمل أمي، والمرة الأولى أيضًا التي بدأت فيها خلايا عقلي بالحياة، بداية الوعي.

بيت طفولتي قديم جدًا، تأبط مرتعًا، تحت سطح الأرض لشارع رئيس، لا أظنه مُهيأ أو يناسب العيش الآدمي، يبدو أنه كان غرفة خزين أو شيئًا من هذا القبيل ثم طورته يد الحاجة والفقر، فجعلت منه بيتًا يقي أسرة محتاجة بسقف واهٍ.

غرفة واحدة صغيرة، قسمت قسمين بواسطة لوح من "الجيبسون بورد"، لا يخفي صوتًا ولا يستر حركة، نام في القسم الأول والدي ووالدتي وفي القسم الثاني أنا وأختي، سلمى، التي تكبرني بأربع سنين، وعلي، وعمر، وهما كما قيل لي ولدا عمي المتوفى وزوجته، التي اختارها الله إلى جواره بعد وفاة زوجها بفترة قليلة، أيتام ليس لهم إلا والدي وكلنا عشنا في متزاحم أقدام صغير.

المطبخ عبارة عن صنبور ماء علاه الصدأ، تتزاحم بعض القدور القديمة تحته، والصحون التي فاضت عن حاجة غيرنا من الجيران الأغنياء، الذين يسكنون فوق الأرض.

الحمام لا يتسع سوى شخص واحد حشرًا، وقد نجتمع عند بابه كثيرًا من المرات، على مرمى خطوتين من الغرفة مما أبعد عنا نتانة الرائحة نوعا ما.

غرفتنا كانت تعاني دائمًا، من رائحة تشبه رائحة القمامة القديمة، عندما تنسى سيارات الأمانة متعمدة شارعًا ما لأيام. رائحة تهيج لها الصدر، فتجعل الأحلام مستنقعًا جافًا زائفًا، يرتدي فيه الوهم نفسًا كريهًا لا يطاق.

***

3.الأسرة:

سلمى، أختي التي تكبرني بأعوام، سمراء جميلة رغم الفقر والملابس الرثة، تمتلك عينين سوداوين لامعتين، وشعرًا أسودًا طويلاً، وخالًا واضحًا على منتصف خدها الأيمن، كنقطة من عنبر، إن ضحكت، ضحك معها وجنى وردًا من خديها، سلمى كانت أحن من في البيت عليَّ.

أما علي، ابن عمي كما زعموا، كان أكبر مني قليلاً، ولكنه كثير العبوس، لا تنفك نظرة الغضب من عينيه إلا لتحل مكانها نظرة أقسى وأعتى، وكأن الإجرام وجد في حدقتيه كل معاني الأسى والمعاناة، فانقلبت شرًا بلا هوادة في قاموس أيامه، يميل لونه الأسمر إلى لون الزنوج الإفريقيين.

عمر، أكبر من علي كما كان يبدو بسنة أو أكثر، أحيانًا بدا لي وكأنهما متماثلان عمرًا، أهدأ قليلاً هو، ذو عينين بنيتين حادتين تنتظران فريستها بهدوء، كما الأفعى ببشرة بيضاء ملساء، تنفث السم متى أرادت بدم بارد.

عمر، هو اليد اليمنى لأمي، يخبرها بكل ما خفي عنها، وهي تكافئه بمزيد من الطعام دائمًا. لا يجمعنا النهار عادةً إلا فيما ندر فهما في العمل دومًا مع أمي وأبي، يخرجون صباحًا ويعودون بعد العشاء، وأحيانًا يتأخرون إلى منتصف الليل، وكأن لعملهم مواسم.

أما أبي، فذاكرتي لا تسعفني بالكثير عنه، في منتصف العمر، قادته أمي بكل حركة ونفس أو تصرف، حتى أنني كنت أراه دومًا كالفزّاعة (خيال مآته)، مخلوق سيطرت عليه أنثاه فيميل كيفما أراد هواها.

جزمت أنه مجرد صنم لا رجاء منه، لولا حزامه الجلدي القديم، الذي اهترأ من استخدامه كسوط عذاب لجلودنا جميعًا، بالطبع بإيعاز من أمي، يصبه علينا أو يستبدله بحذائه، ولا ينتهي طغيانه إلا عندما ترأف أمنا بنا، وتقرر وقف تعذيبنا، لما اقترفناه من أخطاء وذنوب جليلة في نظرهم.

أمي بهية، كما كانوا يسمونها، في ريعان الصبا، تصغر والدي على الأقل بخمسة عشر عامًا، صهباء بعينين عسليتين، شكلها غريب ومتميز عن باقي الأمهات اللواتي كنت أراهم في شارعنا مع أولادهم.

المفارقة أننا نحن الستة لم نكن نتقارب بأي جينة من جيناتنا الوراثية، بالشكل أو الصوت أو الطبع حتى، وكأن الكروموسومات التي شكّلت صفاتنا كانت مختلفة، إلى درجة العداء.

نعم... خُرطنا بقوالب مختلفة.

إلا أن أمي كانت الأقسى والأشرس، صارمة حد النخاع، الجميع يخاف من بطشها، إن حاد عن الصراط المستقيم.

ذات مرة، ارتكبت معصية، حين تمادى عقلي في شعور الجوع، فأرسل إلى معدتي إشارة ألم لم أحتملها.

فليس من طبع البطن الجائعة أن تسمع التعليمات والأوامر، وقد منعت أمي الطعام عنا، مسموح لنا فقط بأن نأكل وجبة واحدة قبل النوم وبمقدار محدد.

أحضر يومها أبي الخبز الساخن باكرًا، ولم تسعفني يدي بالكف عنه، فحتى الذئب الجائع يحصي الأرانب في منامه.

سرقت منه رغيفًا، وهربت إلى الحمام، لألتهمه.

لم تزعجني رائحة الصرف الصحي، رائحة الخبز الساخن المعجونة بجوعي، طغت على كل رائحة أخرى، الجوع كافر ولكن هيهات... قضمة واحدة فقط، هي ما نالته بطني التي تتضور من المعاناة، لم تكن أسناني سعدت من لقمة أخرى، حين سمعت أزيز باب الحمّام المزعج، ينبئني بعقابي الشديد المنتظر، وأمي غاضبة تنظر لي، يكاد الشر يشعل كل ما حولها بنار فاسقة، وابن عمي الخبيث عمر، يبتسم منتصرًا بهدوء.

لمحني أتسلل فأخبرها عني، وها هو الواشي ينتظر المكافأة.

أخذت مني الرغيف بقسوة، رمت ما تبقى منه إلى عمر صاحب النميمة الأحمق، فهو جائزته، تلقفه بلهفة وابتعد يلوكه بنهم، حتى أجهز عليه

بثوانٍ، ومع أني سامحت ابن عمي عمر بنفس اللحظة، لأنه كان جائعًا مثلي تمامًا، إلا أنني كنت يومها عاجزًا.

ضرب مبرح من أمي ألمَّ بي، حتى شعرها الأحمر شارك بالغزو على جسدي النحيل.

بقيت يومين بلا طعام عقابًا على ما اقترفته يميني، لكن العقاب الأكبر لم يكن الجوع أو الألم، وإنما الضغط النفسي الذي كنت أشعر به.

كيف لمن أنتظر منها الرأفة والحنان، أن تعاملني بكل تلك الشراسة والعنف من أجل رغيف؟

أين الشفقة والرحمة؟ وصوتها الغاضب يرن في الأرجاء:

-آدم، أيها السارق، لعينٌ أنت إلى يوم الدين.

هل هو مفهوم التربية والتأديب بالغلظة، والأذى حتى لا أسرق مجددًا مهما كان جوعي ملحًا؟. بكل الأحوال لم أعاود الكرة مطلقًا.

كنت مُتكوِّمًا كخردة، لا حياة فيها في زاوية الغرفة العفنة، أنتظر منها نظرة لين أو ندم، لما سببته لي من ضرب وحرق بالكبريت ليديّ وقدميّ، في لحظة غضبها.

أبدًا لم تشعر بالندم بل على العكس، استرخت أمامي بعد تناول الطعام، ثم اتجهت بغنج إلى غرفتها مع أبي، وكأنني ظل أو شبح، غير مرئي.
بعد تلك الحادثة بأيام أصابني مرض ما، ارتفعت درجة حرارتي رافقتها كحة ناشفة أزعجتني، إلى حد أن جهازي التنفسي لم يعد يقوم بواجبه اتجاه جسدي الضئيل.

اختفى اللون الأخضر من عينيّ، طغى عليهما اللون الأحمر، الطفح نال من مساحة جلدي كافة، حكة شرسة داهمت جسمي بأكمله، كلما لبيتها زادت شعوري ورغبتي بالحك أكثر.

جلّ أمنياتي في تلك اللحظات كانت أن تضمني أمي إلى حضنها، ولو لثوانٍ، علَّها تخفف عني بعض الألم، أو تجعل رأسي يتكئ إلى حجرها، لتمسد شعري بأصابعها، أحتاج أصابع أمي لتنهال عليّ حبًا لا ضربًا.
وقد يكون شفائي من سقمي، نقطة من نهر حنانها، كما يجب للأم أن تكون.

رحمة وضعها الخالق، حتى في الحيوانات الهمجية المفترسة، حيث أودع الله في قلبها الرعاية والعطف على صغارها، من لحظة تكوّنِها في رحمها. فالأمومة ليست حكرًا على البشر، فأين أمي؟. أين حنانها؟.

حتى عندما حاول أبي احضار كوب ماء لي، وقد أخذته الشفقة على حالي منعته: فليشرب إن أراد لوحده، لا تقترب منه فيصيبك الداء، لا تهتم. هو يعاني من الحصبة فقط، إن حالفه الحظ سيعيش، وأنتم...! عمر، علي، سلمى، إياكم والاقتراب من آدم.

ثم بقهقهة مغرية مالت على كتف أبي قائلة: تعال نوصِ بطريقتنا الخاصة على غيره، إن مات تحسبًا أذعن لها، وتوجه إلى مكان نومهما، محتضنًا خصرها بلهفة.

تركوني وحيدًا، لا يؤنس شقائي إلا صوت طنين الذباب، حول الضوء الأبيض الخافت. ربما ازدادت الحمى، فغلى منها جبيني، ورأيت أمي تحنو مشفقة عليّ، مختلفة كانت، بيضاء لطيفة ذات عيون خضراء مثلي، ليست صهباء على الإطلاق.

هي رؤيا أم حلم؟ ما مصدرها؟. شفيت بعد عشرة أيام، وعادت الحياة إلى عهدها المعتاد، والأيام تتوالى.

***

4.التسول:

كيف لطفل لم يتجاوز التاسعة من عمره، ألاّ يخدع بأحلام تجتاح دائمًا منامه؟ كيف لا يقاوم واقعه ليعيش تلك الأوهام البريئة؟. معظم أحلامي إن لم تكن كلها، كانت تتلخص في حضن أمي الجميلة، التي تماثلني شكلاً بعيون خضراء.

حياةٌ مريحة، فطور شهي في الصباح مع كأس من حليب دافئ، قطع من الشوكولا الفاخرة، تلك التي كنت أراها فقط في الواقع من خلال زجاج المحلات التموينية، سرير دافئ مريح عليه غطاء أزرق، تزينه رسومات "السنافر"، الشخصيات الخيالية الزرقاء، التي طالما لمحتها في الشارع، الذي تكثر فيه لوازم بيع ما يخص الأطفال، وحالفني الحظ السعيد بحضور عشر دقائق من إحدى حلقاتها الكرتونية، عندما قمت بمساعدة جارة لنا، بتنظيف زجاج نوافذ شقتها لقاء وجبة طعام.

آه! تذكرت.. أردت أيضا وسادة من أمنيات جميلة، تفوح منها رائحة عطر أمي الوهمية. عشقت النوم ففيه خلاصي. بالغت في الاسترسال به إلى أن توقظني أمي، بهية الصهباء، بصفعة قوية على رأسي، لتنبئني بأن الحلم العاجز قد انتهى، بَخّره الواقع الكئيب بسيف خدعة حاد، وكيف نُخدع، والسيف على أعناقنا يطالبنا بالتلاشي؟

ويبقى الحلم شهوة المحروم.. ذاك الصباح لم تكن الصفعة المعتادة، أبدلتها أمي بركلة موجعة على خاصرتي اليمنى، لإيقاظي ربما بسرعة.

استيقظت وأنا أبكي بحرقة، لا أعلم سبب بكائي، إن كانت على مرارة عودتي للواقع، أو حلاوة حلمي الذي غادرني، قبل ان ألتهم قطعة من الشوكولا على الأقل.

نظرت لها مستغربًا، لكنها وضعت بين يدي مغلفًا بلاستيكيًا شفافًا، يحوي عددًا من علب محارم ورقية، وأخرى بيضاء من العلكة الرخيصة النوع والثمن.

وبصوتها الغاضب كما تعودت عليه مسامعي صرخت: هيّا إلى العمل، سأشرح لك بالتفصيل مهمتك، ستبيع هذه البضاعة، على الإشارات الضوئية في الشوارع الراقية، وإن وجدت الظرف يسمح لك بالتسول، افعل.

ستعمل من السابعة صباحًا، إلى أن تنتهي من بيع كل ما لديك، وإياك ثم إياك أن تلتقطك إحدى سيارات الشرطة أو مكافحة التسول، سأنكرك إن حصل، ولن أساعدكَ.

ووسط ذُهولي أكملتُ: لا بدَّ من مبلغ معلوم تسلمه لي يوميًا وإن لم تفعل فحزام والدك والحبل بانتظار جلدك، بلهفة مصاصي الدماء إلى الفريسة، وقد أُعذر من أنذر.

هذا ما أذكره من ثرثرتها يومها، التي دامت أكثر من عشرين دقيقة. لم يكن لديّ فيها ثانية واحدة للاستفسار أو الاعتراض، وبدأتُ مهامي المفروضة.

لم يكن وقوفي اليومي في الشوارع الموحشة لقلبي، رغم ازدحامها وحيويتها، لتنفيذ ما أوكل إليّ إلا قتلاً للرحمة، ولكل معاني الإنسانية والطفولة في داخلي.

أذكر مرة أنني نظرت إلى انعكاس صورتي، على مرآة إحدى السيارات المارة فلم أعرف ملامحي، عيني تشوبها نظرة خزي ومذلة، ممزوجة بحقد يكاد ينطلق كرصاصة، تأبى إلا أن تصيب ناظرها في مقتل، قد أصابت كل من لمحتهم في طريقي حتى الطيبين منهم.

لم تكن مشاعري تفرق ما بين محسن كريم يعطف عليّ، ويعطيني بقاياه من طعام أو قروش، أو لئيم يشتمني ويبعدني عن زجاج سيارته، خوفًا من أن ألوث لمعانها بقذارتي، وما أكثرهم!

لم أرحم أحدًا من كراهيتي، إلا سيدة تكاد تشبه أمي الوهمية في الحلم، بيضاء خضراء العينين، تمر كل بضعة أيام بمكان وقوفي المعتاد، شاعت الدفء في قلبي بابتسامتها الحنونة، وسؤالها عن اسمي وعمري.

وهبت لي بعضًا من روح، وبعضًا من قناعة بأنني ما زلت إنسانًا. استنكر ذهابها السريع صامتًا حزينًا، لم يعزّني إلا قطع من السكر مما وهبتني، ليتغير ولو قليلاً طعم الابتلاء المر في حلقي.

تلامست أيدينا أحيانًا، وأنا أتلقف منها قطع السكر مع بعض المال بلهفة، فتنقل أصابعها الدافئة الناعمة تجلد أطرافي، لربما لمحتُ في عينيها دموع شفقة وعجز، فما عساها أن تفعل لمن هم مثلي؟ أيضًا هي عاجزة.

ذلك البرد الشديد، ما زلت أذكره، أحدث ضجيجًا مؤلمًا في كل جسدي، حتى كادت أصابع قدمي تركض هاربة تحت محركات المركبات، لتنال قسطًا من الدفء.

وليس الحَرُّ بأكثر رأفة من البرد على جسدي النحيل، المتهالك تعبًا، أو موجات إشعاع الشمس في تموز وآب، أقل تعذيبًا أو شعورًا بالعطش والجوع. كل ما سبق أهون على نفسي، من موعد العودة إلى الخرابة التي نعيش فيها، نعود ليحين موعد الحساب.

يفرُّ الشيطان في تلك اللحظة، تاركًا لبهية الساحة خالية، وهو على ثقة بأنها ستقوم بالواجب، فهي الخبيرة بكل أنواع العقاب. ولكل ذنب ما يليق به من العذاب. وقد يحتاج شيطانها إلى إصدار حكمين بالعقاب في ليلة واحدة، كما حصل معي ومع علي.

في إحدى الليالي المشؤومة، ارتكب علي ابن عمي جريمة فظيعة، تَصّرفَ ببعض من النقود التي حصّلها بنفس اليوم. اشترى نصف دجاجة

وحذاءً، من متجر الملابس المستعملة، جعلته بهية يخلع ملابسه ويُبقي عليه فقط ما يستر عورته، جُلد بحزام الوالد، المخصص لمثل هذه المناسبة، ثم بقي مقيدًا بالحبال دون طعام، كيلا يعود لاقتراف هذا الاثم الشنيع، وهو من الكبائر عند أمي بهية.

أما أنا فقد وشى عمر الخبيث عني مجددًا، حيث كان لي صديق يكبرني قليلاً، ويعلمني منذ أشهر القراءة والكتابة، ما أنقذني، أنني بنفس اليوم أحضرت لها أكثر مما تتوقع من مال، فكان عقابي الحرمان من طعام العشاء.

كنت جائعًا فعلاً، حسدت قبائل النمل في أرجاء الغرفة، وتحت تلك الطاولة الدائرية الخشبية القديمة، التي يلتف حولها أفراد الأسرة، لتناول شبه الطعام الموجود عليها كل مساء.

حسدتها وهي تلتقط فتات الخبز القديم لتقتات به، وأعتقد جازمًا لولا جوعها المزمن مثلي، لترفعت عن إطعام نفسها بفتات الخبز، الذي يعلوه

طبقة خفيفة من العفن، رائحته الكريهة لوحدها كفيلة بإبعادهم. لكن الجوع كافر، يُعمي البصر والبصيرة وحاسة الشم والتذوق.

طبعًا بهيتي، والدتي المزعومة ووالدي، لا أذكر أنهما يومًا شاركونا تناول الطعام، على نفس الطاولة الخشبية، وإنما يتناولان العشاء في غرفتهم معًا، ثم كالعادة صوت ضحك وغنج مبتذل قبل الخلود إلى نوم عميق، غير مكترثين بما قد يحدث معنا نحن الأربعة.

يبدو أنهم تناولا عشاءً ثقيلاً تلك الليلة، فشخيرهم المزعج وصل مسامع كل الجيران، لكنه كان نافذة الخلاص لنا، شرّهم نام ولو مؤقتًا.

أسرعتُ الخطى إلى علي، وضعت فوقه لحافًا قديمًا، به من الثقوب ما يمكنه من إخفاء جيوش من الحشرات، وأتته سلمى بقطعة من خبز جاف، خبأتها مسبقًا مع بعض الماء.

لون جلد علي القاتم، الذي يقارب لون الأفارقه الزنوج، تحوّل إلى اللون الأصفر الضارب إلى الزرقة، من البرد الشديد والضرب.

كان سعيدًا لأول مرة بحياته، بالرغم من ذلك، وهو النِكديُّ على الدوام.

همس لي بصوته المتعب: مذاق لحم الدجاج شهي جدًا يا آدم، شعور الشبع يا بن عمي، متعة جسدية رائعة، لذة لا تفوقها لذة! أنا مبتهج بحذائي جدًا، سَيَقيني ماء المطر والحصى، سأنتقل من شارع إلى شارع كطائر بلا جناحين، ولن أضطر كل مساء إلى معالجة قدمي من المسامير والحجارة، سأعدو كالرياضيين دونما حذر أو خوف.

لم أتمالك نفسي ليلتها، شعرت بالغبطة لسعادته، لثقته رغم كل ما هو فيه من برد وجوع وألم، من آثار الحزام الجلدي الظالم بغدٍ أفضل، حتى لو كان منتهى أمله، نصف دجاجة وحذاء.

هل أحسده؟ أم أغبطه؟، وأنا المتشائم الحاقد دومًا، هل أفرح لفرحه؟.

فجأة لمعت في ذهني فكرة، هي فكرة أشعرتني بالرضى التام.. الليلة سأخبر أمي خضراء العينين في الحلم، أن تطبخ لي دجاجًا مشويًا وتشتري لي حذاءً جديدًا.

وفقط في الأحلام منجى من الشر والمعاناة.

***

5. البلوغ:

كانون شهر الجليد، يلفظ فيه الكون أنفاسه المتسربلة بأحلام مستحيلة، وتبتعد الشمس بقسوة عن جبين الأرض، حتى الورود منكسرة الخاطر، ضاعت ملامح بهجتها وكأنها تهمس بصوت خافت، الموت قريب، استعد.

سبات قاتل والقلوب مغرقة بالأسى. ذاك الصباح مختلف، لا شك كان أقسى برودة، حتى مشاعري الجسدية مختلفة.

ابتلعتُ ريقي، واختفى صوتي خوفًا مما يحدث لي، هل أنا مريض؟. لم أكن أعلم.. كنت خائفًا من بطش بهية، عندما تعلم أن زخات المطر تجاوزت حدها إلى سروالي الداخلي، وأصابت ملابس نومي الرثة وقليلاً مما يسمى فراشي.

رائحة غريبة تنبعث مني، ورعشة طفيفة كأنها الحمى. جبيني مبلل بالعرق رغم البرد، كمؤمن صابر في لحظة سكرة موت.

أو ليس للمؤمن ملائكة رحمة تدافع عنه وتنصره، من غضب أمي بهية، الشيطان المارد، نعم... هناك ملاك اسمه سلمى. لم تكن سلمى قد استيقظت بعد، فمنذ سنة تقريبًا لها الأحقية أن تنام كما يحلو لها. ممنوع على جسدها حزام أبي وحذاء أمي، هجرتها الحبال بود، وارتدت ملابس نظيفة.

تلك العطايا التي منحتها بهية فجأة لها، مُنحات كانت في وقتها مجهولة الأسباب بالنسبة لي، ولكنني سعدت لأجلها، خاصة أنها كانت تقاسمني الطعام والحلويات المخصصة فقط لها.

همست بصوت خافت مرتين علّها تسمعني: سلمى! سلمى!.

استيقظت بتثاقل، وكأن سهرتها البارحة كانت متعبة وطويلة. عمّ المكان هدوء قاتل للحظات، ثم أجابت بصوت كسول: ماذا تريد يا آدم؟.

_ تعالي، أرجوكِ، أريد أن أخبرك عن أمر مُهمٍّ. عصرت رأسي بين كفيّ، ونظراتي مصوبة نحو الأرضية في ذهول وشرود، الصمت أخرس صوتي إلى مالا نهاية.

تائهٌ أنا، ماذا سأخبرها وكيف سأخبرها؟، وبأي حروفٍ من حروف الأبجدية سأبوح لها بما حدث؟. لا بد لي من كسر الصمت والكلام، وإلا لبقيت في مستنقع الاضطراب والحيرة، إن لم أخبرها بأزمتي.

اقتربت مني متسائلة، لم أتفوه بكلمة، فقط أزحت الغطاء قليلاً عن النصف الأسفل من جسدي، وأشرت إلى منطقة ما تحت السرة، وإلى سروالي المنتفخ المبتل بخوف وخجل، كأنني عذراء في خدرها، كدت أبكي ومنعني الحياء، فالحياء يليق بالأطفال، وأنا اشعر بنفسي رجلاً.

استجديتها لحفظ سري.. نظرت اليّ وعيونها تلمع، ممارسة طقسًا من طقوس التأمل المعتادة، كأنّها ترى مثل هذا المشهد يوميًا.

شيء غير مهم أو مثير للمعرفة، ضحكت ضحكة سافلة، أظن أن كل من كان بشارعنا قد سمعها، خالها الواضح على منتصف خدها الأيمن رقص على صوت ضحكتها. مالت عليّ، حتى التصقت شحمة أذني بين شفتيها الرطبتين.

همست لي:

_ أصبح عمرك أربعة عشر عامًا، ولقد بلغت سن الرجولة.

هُرِعت سلمى مسرعة إلى غرفة أمي بهية، أخبرتها ببساطة عن الحدث، تناوبتا الضحك معًا بابتذال مقيت. أحضرتا لي بعدها ملابس نظيفة، وبهية تردد بخبث: مبارك يا فحل.

استغربت، لم يألف سمعي ذاك اللفظ "فحل". فما يا ترى قصدت، وما معناه من مرادفات معجم البشر؟. بعد فترة وجيزة علمت أن "فحل" معناه الذكر القوي جنسيًا، المكتمل الرجولة.

وتوجَّست اشمئزازًا من المعنى المفترض. فوضى عارمة، كلمات عفنة، ضحكات مليئة بالاستهزاء والمزاح وبعض النذالة.

لم تضربني بهية، ولم تشتمني لأنني تأخرت عن موعد العمل، بل بالعكس استغرقت في التفكير، متأملة ما تحت حزامي، ربما لتكتشف صدق المقال من كذبه...

تسللت إلى الحمَّام، قلبي يخفق بعنف فأر تجارب، فتحت صنبور الماء، لأُداري به ما اعتقدتُ بأنَّه جريمتي.

بدّلت ملابسي بأخرى نظيفة جافة، وفي طريق عودتي للغرفة، أوقفتني نصف المرآة المكسورة المعلقة على طرف الحائط بإهمال، لم أعرها انتباهي يومًا، لمحت وجهي، أنا وسيم بالفعل، مرحلة انتقال رسمية، شارب بنيّ خفيف ناعم بدأ يعلن نموه فوق شفتي العلوية، أنفي أصبح أكبر قليلاً، عضلات جسدي رغم نحوله أصبحت أكبر.

شعرت بالفخر والاعتداد بالنفس، أصبحتُ رجلاً. خرجت كعادتي للعمل، على إشارات المرور سعيدًا لأول مرة في عمري. اخترت شارع الحمراء، شارع معظم من مرّ به أغنياء. وكما يغطي الفقر فضيلة الفقراء مهما أحسنوا، المال يستر رذيلة الأغنياء فلا يُظهر لهم عيبًا.

معظم الأثرياء لا يملكون التمويل الكافي، من الأفكار السديدة والخلاقة، لتنفيذ مشاريعهم التي تدر عليهم المال الوفير، هم يحتاجون أمثالنا من البسطاء، جهدًا وفكرًا وساعدًا، ولا نلتقط نحن الضعفاء المساكين سوى فضلات موائدهم العامرة.

لم أكن أرغب بالتفكير الجدي، فالجدية تفسد متعة السعادة، فكما لكل قادم دهشة، لكل جديد بهجة، وانا اليوم مبتهج بجديدي، ولن أصيب فرحتي بإحباط التأملات. تلاشى جزء كبير، من خوفي من السيارات وسائقيها. كنت جريئًا.. أخاطر حتى عند عبور الشارع ذهابًا وإيابًا، وظل صوت بهية يرن في أذني، مبارك يا فحل.

لم أهتم بصراخ وشتائم السائقين، خاصة عند اعتراضهم على مسح زجاج سياراتهم بممسحتي القذرة، طمعًا بقليل من المال.
ولا السيدات المتفاخرات، اللواتي يَنْهَرنَني بشدة وقسوة، عندما أعرض عليهن المحارم الورقية والعلكة الرخيصة.

اعتقدت أنني نمرٌ بعينين خضراوين، مع أنني بالواقع كنت قط صغير لا حول لي ولا قوة؛ فحتى سمك القرش المفترس، لن يكون إلا عاجزًا إن وضعته في صحراء قاحلة لا حياة فيها.

غباء واستسلام الضعفاء هو الوقود الأمثل لظلم الطغاة، وأنا فقط، ذبابة حقيرة مترددة لا تثق بنفسها، ولا بقدرتها على خدش حتى وجه الماء بنفس ذلك اليوم، تعرفت على "الباشا".

***

6. الباشا:

لم أكن أعلم أن الجرأة والفرح متوازيان حدّ التلاصق، وأن الشجاع إنسان سعيد، والجبان المتردد تعيس مهزوم.

الشجاعة، تكمن في عقولنا، شحنة إيجابية تستطيع من خلالها منح نفسك ثقة المارد، وقد تكون في أغلب الحالات، أكبر بكثير من حقيقتك الضئيلة، وربما توقعك في فخ لا منجى منه ولا مخرج.

اختلتُ كالنمر في شوارع كبيرة، سياراتها مسرعة، غير آبهة بأمثالي من الكائنات البشرية، في حال اعترافهم أنني منهم أو مثلهم أو فقط إنسان.

فجأة وبدون سابق إنذار، أقصد بوقًا، عبرت أمامي سيارة فخمة على أحدث طراز، حملت لوحة من رقم مميز جميل، واضحٌ أنها ملك لشخصية مهمة.

أبطأ السائق سرعته المتهورة، وكأنه مأمور بذلك، وقف بمحاذاتي، والإشارة الضوئية ما تزال خضراء ولا تسمح بالوقوف، نوافذ السيارة المظللة، حجبت الرؤية عمن بداخلها.

مذهول أنا كنت، من جمال تصميمها الخارجي، بديع جدًا، وأنا العاشق لكل السيارات، لكل ما يتحرك على أربع عجلات.

فتح السائق نافذته المعتمة قليلاً، فانبعث منها دفءٌ يشابه دفء شهر تموز، رغم برودة كانون، التي كانت تأكل أطرافي بنهم مفرط كالعادة.

السائق صاحب الوجه النحيف، غارت عيناه الصغيرتان في وجهه، سألني:

_ ما اسمك يا غلام؟

بصوت حمّلتُهُ، كل ما استطعت من خشونة:

_ أنا رجل، لست غلامًا!

ضحك السائق ملء شدقيه الواسعين، حتى أظن أن وجهه أصابه زلزال فتصدع إلى نصفين، نصف يحمل عينيه وأنفه، ونصف آخر يحمل ذقنه فقط.

_ إذن أيها الرجل الكبير، سأركن السيارة عند الزاوية القريبة، يريد الباشا أن يشتري منك كل ما تحمل.

توقعته يوم سعدي المنتظر، هل رضيت السماء عني يا ترى؟. لا أعلم هل ركضت إلى السيارة كمن يرقص رقصة البطريق، أم هرولت مشيًا؟ كعداء يقصد النهاية؟ أم طرت إليه وكأن النوارس أعارتني جناحين قويين؟.

هبط السائق وكان قصيرًا قليل الوزن، فتح الباب الخلفي للسيارة، لأجلس قريبًا من الباشا. لم أكُن أعلم مُسبقًا، بأن هناك رجالًا في سن النضوج، هزيلة إلى هذا الحد.

استغربت كيف وجد بدلة رسمية لسائق، بمقاسه؟ ومن أين وجد قبعة تليق برأسه الصغير؟. يكاد لا يتجاوزني ذاك السائق اللعين طولًا أو وزنًا، فلماذا تحاذق عليّ؟

أبدو كرجل، ربما أكثر منه.. ووسط ذهولي التام، بصوت صارم مقتضب، صرخ الباشا:

_ أغلق الباب بسرعة يا ولد، الجوُّ بارد. شدّني الصوت الآمر.

الباشا، رجل ضخم قوي البنية، لو لطم وجهي بإصبع إبهامه فقط لطرحني قتيلاً، في منتصف الأربعينيات، له نظرة ثاقبة شريرة تدق ناقوس الخطر، فاقدة لأية مشاعر أو روح إيمان ورأفة.

وكما يقال العيون نوافذ الروح. ارتدى بسرعة نظارته الشمسية الداكنة، ليصمّ أذنيّ عن سماع أجراس الشر، التي تتطاير من عينيه، أو ليبدو بشخصية ألطف وأقوى.

لم يظهر من وجهه سوى جبينه العريض، ووجنتيه الممتلئتيْن. بالونان منتفخان مشدودان، استعدادًا للانفجار.

شارب كثيف مزعج، لا شك أن الطعام يهرب يوميًا من أسنانه الحادة، ليختبئ بين شعيرات شفته العلوية المنمقة خوفًا من بطش بطنه الضخم.

ابتسم ابتسامة خفيفة، وأعطاني من النقود ما يكفيني أن أرتاح، دون عمل لأسبوع على الأقل. بصوت أقل قساوة، وأكثر إغراءً بادرني الباشا:

_ هل ترغب بالعمل لديّ؟ سأغيّر حياتك البائسة؛ لتكون معي رجلاً حقيقيًا.

هل أنا في حلم؟ فتحت فمي مشدوهًا:

_ لكن ليس لديّ الخبرة بأي شيء سوى ما أنا عليه، ولا أعرف إلا قسطًا يسيرًا من القراءة والكتابة.

_ لا يهمُّ، سنعلمك كل شيء، غدًا سيلقاك السائق في نفس المكان والزمان، اِذْهب الآن.

فتحت باب المركبة الضخمة، وقلبي قبل عيوني يترجى كل ذاك الترف والدفء، ونفسي توسلت، دعوني بالنعيم بضع دقائق أخرى، اتركوني أنام على فراش المركبة الفخمة الليلة... فقط الليلة.

لحظات كأنّها حلم أو كابوس، جاهلاً ماهية شعوري يومها، وغادرت السيارة كما أتت مسرعة. هل يُعقل، تلك الكلمات القليلة سببًا لتغيير حياتي، هل أزف عيد ميلادي الحقيقي؟. يومٌ لم يتذكره أحد، ولم يحتفل به أحد قبل اليوم.

هل رضيّ عني الله؟. هل سيعوضني؟

أسئلة كثيرة دارت في ذهني مبشرة، بكسر تعويذة نحسي. ومن يدري قد ألتقي تلك السيدة الحنون، أمي في الحلم، لنعيش معًا كالأغنياء في قصر، راميًا التسول وعقاب بهية وراء ظهري.

بمجرد مغادرة الباشا عدت كما كنت، متسوّلًا، مراهقًا، قذر الملابس. الفارق فقط، جيبي امتلأ بالنقود، ونفسي بروح الأمل بغد مشرق، ونعيم مقيم.

لن تنال مني بهية كل ما حصدت، والعودة باكرًا ستثير الشكوك، وهي التي تظن بالغير الظنون دائمًا، ولم أكن مستعدًا للتحقيق.

أول ما خطر بنفسي في ذاك اليوم، دعوة صديقي الوحيد إلى وليمة في مطعم قريب، هو الوحيد من قاسمني همومي وبعضًا من طعامه، صديقي الذي علَّمني بالسِرِّ قليلاً مما يتعلَّمه في مدرسته الخاصَّة كلّ مساء.

المحظوظ، ارتاد مدرسة راقية، بالإضافة إلى أنه نام على فراش وثير، مع أسرة عطوفة تحبه وتهتم به. يكفيه حظًا، أنه لم يشعر بالجوع يومًا ما ولا بالبرد. أسرعت الخطى إلى الحديقة، التي نلتقي فيها يوميًا، بادرني بابتسامته الجميلة:

_ عدت باكرًا اليوم، آدم!

بكل ما أوتيت من ثقة، قلت: اسمع صديقي، أدعوك لتناول وليمة بأرقى المطاعم، أترك لك حرية الاختيار، لا أريد اليوم أن أتعلم شيئًا، فلتسكت الأقلام وليتكلم الطعام.

قهقهت بصوت عالٍ، لكنه قطع ضحكتي الهستيرية باستغرابه، وهمسهُ لي مشفقًا: لكن يا آدم، لن تستقبلك المطاعم الراقية بملابسك الرثة هذه، مهما امتلكت من النقود! أخبرني كيف حصلت عليها؟.

أطفأ جوابه سعادتي المتقدة، وحلمي الصغير بأن أجلس يومًا إلى طاولة، وأطلب من نادل طعامي الفاخر، آمر وأنهي، أعادني حشرة صغيرة، مهما انتفخت أوداجها قد تطؤها قدم أي عابر سبيل. بصوت قانع برده القاسي، همست ذليلاً:

_ على الأقل نستطيع أن نطلب طعامًا، نأكل هنا في الحديقة ثم أخبرك كل شيء.

أظن الطعام الذي تناولناه أنا وصديقي ذاك المساء، قد فقد كثيرًا من لذته بعد ما دار من حديث، أصابته مرارة وحرقة، ولم أشعر بجديد عن شعوري الدائم، آكل كي أبقى على قيد الحياة.

لا بد أن لحاسة السمع والبصر، علاقة طردية بحاسة التذوق، علاقة علمية ملموسة وليست فقط نفسية، سيكتشفها العلم قريبًا.

بعد الطعام أخبرت صديقي بأمري، برقت عيناه غاضبة، وانتفض حتى كدت أسمع دقات قلبه، وقال:

_ آدم! احذر... قد يكون تاجر ممنوعات، أو تاجر أعضاء بشرية، لا تطاوع رغباتك الشيطانية، ولا ترتكب إثمًا بحق نفسك، بل انسه، انسَ مركبته وسائقه وماله القذر، دعنا نتعلم شيئًا جديدًا اليوم.

أذكرُ أنني رميت الكتاب والأقلام بعيدًا بقوة، فأصابت قدمه ببعض الأذى، جوابي له كان قاتلاً، كسر بيننا جسور الصداقة للأبد:

_ أنت ترغب بأن أبقى دائمًا في مصاف الخدم لأمثالك، حتى لا يتحسن وضعي وظرفي المادي، أتخاف أن أصبح أفضل منك؟ أنت لست صديقي، تكرهني وتحقد عليّ أنا متأكد... ابتسم صديقي بتهكم، ثم رحل متجاهلاً صوتي الهادر كالرعد:

_ فلتضحك استهزاءً أيها السيد الغني، لكن لا تنتقد، فمن العقل أن تكون مجنونًا أحيانًا، مدينتنا ليست فاضلة كما تعتقد، بل فيها يستعين البشر بأوهامهم، غير مكترثين بالخلط بين خير وشر، فلا يُعرف الشيء إلا بتجربة نقيضه، لن أقتنع إلا بما رأت عينايّ من نقود، ولن أصدق إلا ما هو مسطور في دماغي.

اختفى ظل صديقي الوحيد مبتعدًا بُعدَ اختلافنا وخلافنا. لم يسعني والدموع في عينيّ نادمًا، إلا أن أواسي نفسي، فكل الأصدقاء

يتخاصمون، لا يستطيع البشر أن يعيشوا فقط بالوئام، ففي التنازع احيانًا، بُعدٌ عن الجمود والرتابة.

قد يكون كسر الجليد تطورًا، حتى لا نتعود على الاستسلام لأقدارنا الصعبة، والتلذذ فقط بالأحلام فيصبح النوم مثلاً رغبة أبدية وغاية، ويتحول إلى موت وفناء.

لم أكن أعلم أن للكسر هذا ثمنًا باهظًا جدًا، وأن عيشي الفقير المعدم، جنة غواني الشيطان بالخروج منها، رغم صرخة ضمير صديقي. صرخة هزيلة صامتة، سقطت كقطرة ضئيلة على بحر شاسع، فاختفت.

لا أذكر أنني ارتكبت قبيحًا في حياتي، إلا سرقة بعض الطعام عند الجوع، شقاوتي كانت تنحصر في قطعة حلوى أو رغيف خبز. لن يضيعني الخالق، لستُ بكافر.

نفسي ضَعُفَت وانتظرت الغد بورطته مهما كان أمره مهولًا. سأحتاط، لن يأكلني السبع، ومن يدري، قد ينعم الله عليّ بحياة جميلة ورغيدة، كما وعدني الباشا.

هذا ما فكرت به حينها.. خبأت المال في سروالي الداخلي، وعدت إلى البيت ما بين نظرات بهية المستفسرة عن إجحافي عن طعام العشاء تلك الليلة، وسعادتها لإحضاري لها مبلغًا محترمًا من المال.

أشفقت على أولاد عمي، عمر وعلي، وهما يأكلان الزعتر والماء، بعد غمسهم كسرات من الخبز فيهما، شاكرين لي أني تركت حصتي لهما.

أما سلمى فقد خرجت بعد أن تأنقت، ككل ليلة منذ أكثر من سنة، مرافقة لوالدتي بهية في مشوار خاص كما ادعت، وفي عينيها استفسار مُلِح عما ألمّ بي. سلمى التي عرفتني جيدًا، وعرفت أني أخفي شيئًا.

لم أخبرها طبعًا، رغم اندفاع لساني عدة مرات لقول الحقيقة، فوسواس الوضوح يقتل الخصوصية. تقوقعتُ حول نفسي كالقنفذ، انعزلت عن كل ما حولي، واستسلمت للنوم، بانتظار الغد.

***

7.الهاوية:

استسلمت للنوم سريعًا، لم تزعجني رائحة عفونة المكان، أو الحشرات التي تتنزه ليلاً حول فراشي، زحفًا وطيرانًا، لم أهتم لغطائي المثقوب ووسادتي الممزقة الأحشاء، حتى أنني لم أخف من بهية وهي تتوعد، عادتها المتأصلة بأوردتها.

فقط نمت وأنا أردد اسمًا واحدًا "الباشا". المفارقة أيضًا، أنني استيقظت وأنا أردد نفس الأحرف الأربعة. بعد عدة سنوات عرفت أن الباشا لقب تشريفي، تركي الأصل، يمنحه السلطان العثماني للسياسيين والجنرالات، وهو يعادل في اللغة الإنجليزية لقب "لورد"، في حاضرنا أصبح يطلق على كائن ما كان، على سبيل التملق أو المجاملة لفاحشي الثراء، توقيرًا وتعظيمًا، لما يملكون طبعًا.

بالنسبة لي في ذاك الوقت، كان معناه فقط الحلم، حلمٌ جميل مرتقب. في الزاوية المقابلة، لمحت سلمى مستيقظة باكرًا، على غير عادتها، لكأنها لم تنم، رغم أنها تجاوزت السابعة صباحًا.

تجاهلت نظراتها المتسائلة ووجهها المتعب، لكني لم أستطع أن أغض البصر، عن بضع علامات حمراء تميل إلى اللون الأزرق، على أسفل رقبتها وتحت أذنها.

هل عادت بهية لضربها من جديد؟ أم هي لدغات الحشرات والناموس، كابوس كل صيف؟ ما فرض عليّ ذاك التفكير، براءتي المفرطة في ذاك الحين سألتها؛ فوضعت يدها على فمها، مشيرة بالصمت، عيناها امتلأتا دموعًا حاولت أن تخفيها، اندست تحت غطائها ونامت.
لم أهتم كثيرًا لها فلديّ الأهم.

خرجت كعريس ينتظر الزفة، موعد زفتي إلى حياة أخرى، الساعة الخامسة بعد العصر، لن آخذ معي أي شيء من هنا، فملابسي كلها ممزقة بالية. هربت غير آسف على شيء ما عدا أختي سلمى، آه لو أستطيع أن آخذها معي، فكرت أنه ربما في المستقبل القريب سأعود لأجلها.

التسوّل، العمل على الإشارات الضوئية، سيُنسى تمامًا، هكذا خدعتني نفسي بأماني كاذبة. اشتريتُ من محل عطور قريب زجاجة فرنسية أصلية، علّ رائحتها تخفي نتانة ظروفي القاسية، إنسانًا آخر أصبحت بعد بضع نقاط من العطر لامست يديّ ووجهي.

فعلاً، العطر أكبر خرافة زائلة، ما إن يتبخر بفعل الوقت حتى تعود الحقيقة لتظهر من جديد، فالعطر ثقافة، ولكل أنف تقييم. تمنيت لو تغير مظهري كما تغيرت رائحتي بالعطر مؤقتًا، مع أنني مقتنع بأن رائحة قطرات الماء مع الصابون، هي الرائحة الأجمل، رائحة النظافة.

بقيت مدة أنتظر على الرصيف، والانتظار أصعب محنة تمر على الإنسان، تتمزق فوق أحشائه الثواني وهو يترقب، يتراكم الصدأ فوق الروح، وهو ينتظر ذاك المجهول.

قمة اللذة والأمل، قمة الألم والخوف.. تمنيت لو مرت تلك السيدة الطيبة، ذات العيون الخضراء محملة بالسكاكر، علّها تهديني للطريق الأقوم. الهروب إلى "الباشا"، أم الهروب منه؟!

أرهقني مع الانتظار صدى كلمات صديقي "انتبه يا آدم، قد يغويك الشيطان مما تظن أنه نعمة من الله". خصامي معه، بدد جزءًا كبيرًا من فرحتي وحماسي، فلا أنكر أفضاله عليّ ما حييت، لكنها الحياة، ملامح البشر تختفي تباعًا خلال سنين عمرك، لتحل محلها ملامح أخرى.

قاربت الساعة الخامسة، توقّفت السيارة، وبدا لي بصعوبة السائق الهزيل بداخلها، وبدون مقدِّمات صرخ: اصعد هنا أمامي.

ساقاه الرفيعتان، وقدماه الدقيقتان، تتحركان بخفة، وتنتقلان بإصرار على دواسة الوقود والكوابح. كيف تستجيب دواسة سيارة بمثل هذا الحجم والفخامة، لقدم ضئيلة كقدمه؟ وأين يجد لهذه القدم حذاءً؟. أفي متجر أحذية الرجال، أم بين مخصصات الأطفال؟ ضحكت كثيرًا في سري، ثم جلست متأملاً الشوارع.

التجوال في بيروت له متعة خاصة، اختلاف التفاصيل بين هذه المنطقة وتلك يجعلك في دهشة، فبين رقي العمارة وتنظيم المكان في منطقة "السوليدير"، إلى العشوائية في مناطق المخيمات والأحياء المنزوية المتوسطة والفقيرة.

تناغم الطبيعية مذهل بين سهل وجبل وتل، ورمال شاطئية ناعمة. كثير وكثير من الجمال، يمكن أن يندمج سويًا في عدة أماكن، مثل نقطة التقاء شاطئ الروشة بشاطئ الرملة البيضاء. أخرجني من شرودي وتأملي، صوت السائق القبيح: وصلنا، انزل.

لم يكن المكان قصرًا كما توقعت، بل شقة سكنية عادية في الطابق الرابع، من عمارة جديدة، بحي منزوٍ في آخر شارع خلفي، قلّت به الحركة ودبيب الأقدام البشرية.

لفت نظري حديقة جميلة، من أشجار متشابكة في طور التصميم للعب الأطفال، أطلقوا عليها اسمًا "حديقة السعادة"، وبالمقابل منها محل جزار "ملحمة الفرح"، اسم غريب لمكان يبيع اللحوم، فهل يأتيه الغنم والبقر ضاحكًا ليُذبح ثم يُسلخ، وهو يشعر بالغبطة بتضحيته؟ ترددت أكثر.
لكن المثل التركي يقول: "من يتردد بين مسجدين يرجع دونما صلاة".
لن أعود لبهية، كان قراري النهائي.

توجب علينا صعود الدرج إلى الطابق الرابع، المصعد قيد الإنشاء ولم يعمل بعد. قرع السائق الباب بخفة، فتح لنا مخلوق هزيل يشبهه، يرتدي ملابس الخدم. غريب أمر "الباشا" ، مسخ ضخم البنية، وكل من يعمل حوله من قوم الأقزام وملتهم.

تفحصت نظراتي المكان بسرعة، مرتب نظيف يبدو عليه مسحة من الثراء، ولكن خاب أملي توقعت أكثر بكثير. البيت عبارة عن صالة متصلة مع مطبخ صغير، وغرفتين مغلقتين، لا يبدو ما بداخلهما، ليس هذا ما كنت أحلم به.

عدت للانتظار، أخبرني الخادم أن الباشا يغير ملابسه، ويستعد للقائي. سقوط مفاجئ ومزرٍ، أصاب كل أحلامي برؤية ذاك المسخ "الباشا"، قادمًا باتجاهي من إحدى الغرفتين.

لم تكن لديّ الجرأة لعصيان أمره، عندما ناداني بصوت كسول، كمن حصل على فريسة جاهزة في قفص محكم الإغلاق، لا تحتاج مجهودًا أو قلقًا: آدم، أُنظُر إليَّ.

خدوده ممتلئة إلى الحد الذي قد تتفجر، إن لامس إصبع من أصابعك بشرته اللامعة، نظرات الشبق الرخيصة ظهرت جليّة، بعد أن خلع

نظارته السوداء، أسنانه حادة كذئب يريد أن يبلعني بلقمة واحدة. هكذا بدأ سم رعبه، يسري في جسدي المرتجف.

ما دفعه يا ترى لارتداء كساء واسع مشقوق من الأمام، يشبه العباءة الحريرية التي يرتديها الشيوخ؟ تختلف عنها ببضع أزرار، يلتقي يمينها مع شمالها، فتستر تحتها ربما قليلاً مما خفي من تمائم شريرة. تكاد تكون عباءة شفافة تلتصق بكرشه وما يليه، كلما تحرك أو تنفس، كمن يشحذ سلاحه استعدادًا للصيد. اللون الأحمر كان الغالب على هذا الكساء الغريب، لون يدعو إلى الانتباه والحذر موشح ببعض من السواد، لون الحداد والموت.

أصابتني دهشة كمن تعرض لتنويم مغناطيسي، وصوته المقرف الآمر ردد كالآلة:

_ اذهب مع الخادم، اغتسل وبدل ملابسك، أمامنا عمل طويل اليوم، سيحضرون الطعام بعد قليل، ثم بلهجة أقسى صرخ: هيّا بسرعة، ماذا تنتظر؟

تكلم بسرعة دون فواصل بين جمله، كأنه يحفظها عن ظهر قلب، يعرف ماذا يقول وماذا سيفعل. انصعت إلى أوامره دون اعتراض بعد خروجي من الحمام، كنت أكثر اتِّساخًا من ذي قبل، كأنني مرحاض لم يجرِ به ماء منذ أشهر.

أرشدني الخادم إلى خزانه صغيره للملابس، لم تكن تحتوي إلا عباءات حريرية شفافة، تشبه كثيرًا تلك التي يرتديها "الباشا"، ولكن بمقاسات أصغر. ارتديت واحدة، بعد أن وضعت المنشفة الكبيرة على أريكة قريبة وخرجت.

انتفخت أوداجه وهو ينظر إليّ بوقاحة: تعال معي، سنأكل بغرفة النوم ونتحدث براحتنا عن العمل.

تبعته كالشاة الغبية، التي يسوقونها إلى حتفها راضخة بدون مقاومة. الغرفة عبارة عن سرير عليه غطاءٌ أحمر. عاشق " الباشا" لهذا اللون، حتى

الإضاءة الخافتة المنبعثة من الأباجورة القريبة حمراء. تساءلت صامتًا، وقد أصاب الخرس لساني.

قريبًا من النافذة الصغيرة طاولة مستديرة، عليها زجاجة مليئة بسائل غريب اللون، وكأسَيْن، وبضع قطع من الجبنة، وقليل من الدجاج المقلي، وبعض المكسرات.

امتعضت، زادت الرهبة في داخلي، فما هو المشروع أو العمل الذي قد يتولد من عينات الطعام الموجودة على هذه المائدة؟ أين الوجبة الدسمة؟

أغلق الخادم باب الغرفة وراءه، دون أن ينظر داخلها، كأنما أصابه العمى. رائحة كريهة منفرة تزاحمت عند أنفي، وهو يفتح الزجاجة ليصبّ في الكأسين.

تمنعت في البداية عن الشرب بحجة أنني سمعت الشيخ مرة في خطبة الجمعة، يخبر الناس ويحذرهم من المعاصي، وشرب الخمر. قهقه بسخرية، ثم استأنف حديثه: اليوم عيد ميلادك لا بد أن نحتفل، ألم تقل لي أنك رجل، أثبت ليَّ الآن.

وضع الكأس على شفتي وجعلني أتجرعه مجبرًا، وأعاد الكرة، إلى أن دارت بيّ الأرض وكدت أن أقع فاقدًا للوعي، وآخر ما سمعته هو تسارع أنفاس "الباشا"، وصوته المتقطع وهو يقول: جسدك غضٌّ، وعيناكَ جميلتان أيُّها الصبي.

مضى ما يقارب ساعات طويلة، قد تكون يومًا كاملاً، وأنا مُغمًى عليّ، استيقظت مُشوّشًا وغير مُدركٍ لما جرى، رأسي كانت تُؤلمني، ولا أستطيع الوقوف لشعوري بدوار قوي، ناهيك عن الآلام في كل أنحاء جسدي، تحاملت على ألمي ووقفت، قدمايّ مخدرتان تمامًا، ساقي اليمنى

رجفت كأنّها تعاني من تشوه خلقي أو خلع ولادي، أبعدها عن ساقي اليسرى منشارٌ كهربائي مرّ بينهما، فزاد المسافة والحركة مشقةً.

فتحت باب الغرفة لأرى "الباشا"، في كامل لباسه الأنيق، كما قابلته أول مرة، مع نظارته السوداء، اختلف فقط ببعض من البودرة البيضاء التصقت على شاربه الكثيف، نسي أنفه الضخم أن يستنشقها، مسحها بسرعة، وبابتسامة خبيثة بادرني: لم تحتمل جُرعة بسيطة، ما زلت صغيرًا، ستعتاد مع الوقت، اسمع موعد تواجدي في الشقَّة مرَّة واحدة من كلِّ أسبوع، بنفس اليوم. ثمّ أكمل مقاله بإهمال: تعال، إذا أردت، أما الآن فعليكَ المغادرة فورًا.

خيّل إليَّ أنه ليس من يتكلم إنسانًا، بل جهاز تسجيل صوتي حُمّل عليه بعض الجمل، ليلقي بدلوها في بئر مسامعي على عجل دون فواصل كعادته.

بدّلت عباءة الخزيّ والعار بسرعة، ثيابي الرثة أشعرتني بالدفء والولاء أكثر، الطرقات والشوارع، هي جنتي التي هربت منها إلى نار موقدة.

بهية الصهباء لا شك ملاك رحمة، تلك الخرابة العفنة التي أقمت فيها فردوس نظافة وطهر. لا أنكر، جُيوبي امتلأت بالمال كما لم تكن طيلة فترة عملي كمتسوّل بائع، أو بائع متسوّل.

ألمي النفسي، وعجزي عن الدفاع عن أبسط حقوقي كإنسان، وانتهاك جسدي، أكبر وأكثر بمليارات المرات من المال ومن الوجع.

***

8.شيزوفرينيا:

خرجت من ذاك البيت المشؤوم، وأنا أتأرجح ما بين عاقل ومجنون، مؤمن بوجود الله، وكافر بما حدث معي. لطالما كان صمام الأمان في حياتي إيماني بالخالق، منقذي وملاذي، مهما اشتدت بي الأزمات.

غزارة المطر، صوت البرق والرعد، دعوني للتفكر بالكون، فلولا الضبط الدقيق للحياة على كوكبنا لانهارت منظومة الأرض، فمثلاً كوكب المشتري، ذو جاذبية كبيرة، يحمينا من الكويكبات السيّارة ويسحبها بعيدًا، ولولا تواجده ربما اختفت الحياة من على سطح الأرض، وكنّا هدفًا سهلاً للأجرام السماوية، لتحطمنا وكوكبنا.

وهذا المطر نعمة من نعم الله علينا، أرسل سحابه، وأنزله سائلاً مستساغًا ليخلق منه الحياة. كلما تعرفنا على الكون حولنا، وهو معجزة المعجزات، كلما تعزز إيماننا بوجود خالق. ليس الله هو السبب بما كنت

فيه، بل شيطان جشعي، المال يُذهب العقول، وسوسة وجد لها إبليس اللعين منفذًا رحبًا واسعًا في أعماقي.

بعث الله لي ملاكًا صديقًا، يحذرني من حفرة الوحل التي وقعت بها، لكنني لم آبَهْ. أرسل لي الإشارات وعصيت، فأنا المذنب ولكن عقابي أكبر من احتمالي. تسبيحاتي طوال طريق عودتي للخرابة، شملت جملة واحدة، " قد يغويك الشيطان بما قد تظن بأنه نعمة من الله ".

ما إن ولجت عتبة الباب حتى وقفت بهية غاضبة، يداها على وسط خصرها، وعيناها تتطايران شررًا، لم أنتظر منها تحقيقًا أو استجوابًا عن يومي غياب كاملين، بل أفرغت كل ما بجيوبي بين يديها، لم أبقِ على ليرة واحدة، لا أريد شيئًا من هذا المال الدنس سأتركه كله لها، فهي تستحق إثمه وإثمي.

فغرت فاها سعيدة. فمها الذي لن يملأ تجويفه يومًا، ولن يشبعه إلا التراب. لم أتمالك نفسي، وقعت مغشيًا عليّ لعدة أيام، عانيت فيها

الكوابيس والحمى، لم أتناول إلا النذر القليل من الطعام، رغبتي بالكلام انعدمت، فقدت النطق حتى مع سلمى ومحاولاتها، أصبحت عدوانيًا، إن سألني من حولي عن أحوالي قاتلته نظرة من عيوني فيبتعد.

ليالٍ طويلة بتُ فيها خائفًا، كلما أطفأت بهية الضوء. نعم، فالأشباح تأتي في الظلام. كثيرًا ما غافلتها بعد أن تنام، وأبقيت النور مضاء، الليل موحش، وعقارب الظلمة اغتالتني ومنعتني من النسيان، نسيان "الباشا" وما حصل.

ما هي الذريعة التي قد أنسبها إليه ليخف جرمه، أنا حجتي الفقر، فما حجته هذا المجرم؟.

هل فعلته مفخرة، يتباهى بها أمثاله من أصحاب المال؟ أم أن المصابين بالانحراف بهذه الطريقة البشعة عائد إلى تكوينهم البيولوجي، ويحتاجون إلى علاج؟ أم هو الإجرام وفقط الإجرام؟ وربما هو الترف والبحث عن

متعة جديدة، فلا بد أنه محاط بالحسناوات، وبإشارة من إصبعه السمين سيجد منهن العشرات طوع أمره.

"الباشا" في برجه العاجي، لا يعلم أنه يضر أكثر بآلاف المرات من قروشه التي لم تنفع إلا بهية، وهل هو مثلي يخضع تحت ضغط نفسي ومادي، فلا يُلقي بالًا لحرام أو حلال؟

مسامحته أو حتى النسيان ترف لم أملكه يومًا، عادت الحياة صعبة كما كانت، لم يتغير إلا الشارع الذي أتسوّل بائعًا، في أرجائه. لم أعد أستطيع النظر في المرآة المكسورة، وجهي كان قبيحًا، وكذلك جسدي، لا أطيق أن ألمح انعكاس ظلهما على ناظري.

حاولت مرارًا أن أتردد على الحديقة، حيث كنت ألتقي الصديق الملاك، عبثًا دون جدوى، اختفى. داومت الكوابيس زيارتي كل ليلة بموعد

رسمي لا تخلفه، مصرة هي، كإصرار سلمى، وسؤالها الفُضوليِّ الدَّائم لي: ماذا حصل معك خلال غيابك ذاك اليومين؟.

كانت تلح وأنا أهرب من الإجابة، متعمدًا التجاهل. أعلم أنني يومًا ما سأخبرها.

***

وأتى الحدث التعيس، في خرابتنا العامرة بالبؤس من حيث لا ندري، نحن لم نعتَدْ إلا على النحس، يعلن وجوده يوميًا بيننا، يحلق فوق رؤوسنا، ويعشش شذاه الكريه بين مسامنا دونما سبب أو ذنب.

والدي، خيال الفزاعة المسكين الذي طالما أرهبتنا بهية بحزامه وبطشه، أصيب بنوبة مفاجئة شديدة مزّقت وعاءً دمويًا من دماغه، أصابته جلطة أدت إلى شلل كلي، في الجزء الأيمن من جسده.

في المشفى الحكومي أخبرونا، إن السبب تناوله بعض الأدوية المضادة للتخثر، والتي ترفع من ضغط الدم. سمعتُ الممرِّضات يتندَّرنَ بسُخرية عن حالته: لا بد أنه كان يتناول المُقوِّيات كثيرًا.

تمنيت لو كان لديّ الجرأة لإخبارهم، من لديه زوجة كبهيّة، يحتاج إلى أطنان من المُقوِّيات، على الأقلّ ليُبعِد غضبها، وعصبيّتها عنه. حقدتُ عليهن، وما زلت، ألم يعلمنّ أن في بعض القرى والمناطق الريفية تنال السمعة السيئة من ملائكة الرحمة، نظرًا لظروف عملهن بين الرجال، والتوقيت الليلي لمناوباتهن أحيانًا، أعلم أيضًا، أن في هذا ظلمًا واقعًا كبيرًا على النساء عامة وامتهان لحقوق المرأة، التي تنادي بها المؤسسات في كل المجتمعات، الشرقية خاصة.

إلا أنني في تلك الليلة، دعوت أن تلاحقهم أشباح الظلم إلى الأبد، لسخريتهم من رجل مريض مشلول، لا حول له ولا قوة.

المشفى قذر، احتاج إلى قنبلة نووية، لتطهيره من الجراثيم والصراصير، الحشرات تتنزهت في الممر دونما رقيب، فمن الطبيعي أن يكون بعض من ممرضاته قذرات مثله، لا عمل لهن سوى التدخين وشرب القهوة والاستهزاء بخلق الله.

لم نكن نملك المال الكافي، لنصل حتى عتبة مشفى خاص نظيف، ولكلٍ ثمن حتى النظافة. بهية كنزت المال لنفسها، لم تنفق قرشًا واحدًا على المسكين المريض، زوجها.

أعدناه للبيت مطرودين، بحجَّة أنّه لا يوجد سرير فارغ، وهناك حالات أصعب من حالته تنتظر دورها. عاد للبيت ليبدأ مرحلة المذلة، لم يغادر السرير مطلقًا، لكنّه رأى، وسمِع، وفَهِم كلَّ شيء حوله.

حقاً، أشفقت عليه، رغم ما ذقت منه ما مضى من عذاب سنين، كل يوم كنت أدخل عليه خلسة بعد خروج بهية ليلاً، لأؤنسه قليلاً، أعطيه بعض الماء، أو أنظف مخلفاته، وحدي من منحته بعضًا من اهتمامي.

شعرت بسعادته بي، رغم أنه لم يستطع الابتسام بسبب تهدّل فمه من جهة واحدة. رأيت في عينيه ابتسامة صادقة، يعبر عنها سيل من دموع وألم. وجودي بقربه صنع له تمثالًا وهميًا من أمل جديد، بعيدًا عن إهمال أختي سلمى، وأولاد عمي، وتأنف بهية منه ومن مرضه.

تأكدت أنني سبب من أسباب تمسكه بحياته المزرية، أسعدني هذا الشعور جدًا، كلما صرخت به بهية: أوفٍ منك، متى ستموت أيها العالة؟.

هززت رأسي مقلدًا لها، ثم غمزت له ممازحًا، فتبرق عيناه بسعادة ويصم أذنيه ويعمي عينيه، فلا يرى أحدًا معه سواي، ولا يسمع صوتًا غير صوتي. تولد السعادة عندما نمنح الآخرين بعضها، كما كنت أفعل.

سيل نهر المصائب جزار لا يرحم، من الصعب التنصل من جريان دوامته القوية، ومن الأصعب السيطرة عليه إن بدأ بالجريان. هو بالنهاية قضاؤك وقدرك من الله، وما عليك إلا الصبر وإعداد نفسك للفواجع قبل وقوعها، هذا إذا بقيت على قيد الدنيا من الأحياء، ولم يكتم تنفسك حصى النوائب، قاتلة لك أحجارها بضربات قضاء قاضية.

ومن أين لي، وكنت المراهق اليافع، الصبر؟. شاب شقي في مطلع العمر، لم يرَ في حياته إلا المآسي، سلسلة من الدراما الحزينة التي لا تنتهي، وعندما بدأت تجربتي مع الكبار وأصبحت منهم، اغتالوا براءتي وأفقدوني كرامتي، حتى روحي انتزعوها، فعشت جسدًا مذلولًا بلا روح. ليتني أعود طفلاً لا أفقه شيئًا، وتبًا للرجولة المشوهة.

تلك الليلة كانت كل الأحداث مختلفة. طعام كثير على طاولتنا الخشبيّة، النمل رقص فرحًا، اِقْتاتَ شيئًا مختلفًا غير الخبز العفن. وليمة جيراننا

الأغنياء، قد فاض منها الطعام الكثير، وعوضًا أن يرموا في القمامة فضلات ما بقي منهم، قرروا المنّ علينا بها.

حدث مختلف ونادر بالنسبة لنا. عشاؤنا على الأغلب ماء وزعتر رخيص الثمن، فالجبنة البيضاء وشقيقاتها بالنسبة لنا، حلم قلّما يتحقق، ولا أجحف حق بهية، إذ أحيانًا تمن علينا بقليل من الفول والعدس، وفي الأعياد قد تسلق لنا بعض البطاطا والبيض.

أمر آخر جديد حدث تلك الليلة، سلمى لم تخرج كعادتها الخُفاشية كانت بكامل أناقتها تنتظر، يبدو أن صاحب الموعد قد أخلف موعده؛ فشعرت بالخيبة والملل.

تهادت سلمى بثوبها الحريري الأحمر أمامنا، ثوب فاضح تمامًا، كجمال جسدها الهارب من فتحاته العليا والسفلى. كم أكره هذا اللون، لون الدم، وكم أكره الأجساد العارية.

الوحيد أنا الذي لفت نظري المشهد المثير للاشمئزاز، أما أولاد عمي فقد أكلوا حتى التخمة، فأصابهم عمى مؤقت، طغت به البطون على كل الأحاسيس الأخرى، فاستلقى كلٌ في فراشه، ووصل شخيرهم سطح العمارة التي تجاورنا.

اقتربت مني سلمى بغنج وميوعة واضحة، محاولةً تعويض ما فاتها في موعدها لتطرد الضجر.

خدعوك، إن قالوا لك: حبال الشيطان قصيرة، فضعف غرائز الإنسان يجعله يغرر به أكثر، وإذا اتبعت خطوة واحدة من خطواته اللعينة لمرة، فلن ينساك أبدًا لتسلك طريق الصواب، بل سيسهل انقيادك إلى الخطيئة والإثم، أهم حبائله النساء وألسنتها، "والفتنة أشد من القتل".

سلمى، عروس الخرابة، احتاجت عريسًا مختلفًا كل ليلة. ابتعدت عنها قليلاً متسائلاً:

_ ماذا تعملين كل ليلة، وأنت خارج البيت متأنقة؟

_ أبيع...

_ ماذا تبيعين يا سلمى بملابسك الفاضحة هذه؟

_ كل شيء في الحياة سلعة تُباع وتُشرى، فما رأيك آدم، خلف الستارة نختبئ، تخبرني بأسرارك وأخبرك؟

بلا اهتمام سألت:

_ بماذا ستخبرينني؟

قهقهت سلمى بغنج أكبر، ثم أمسكت يدي، سحبتني برفق حتى لامس كتفي كتفها العاري، وقالت: سأفضح لك كثيرًا من الأسرار، فتعال، البداية من حقك، والنهاية ستكون كيفما أشاء.

فراشها الأرضي خلف الستارة، كأنه منصة للاعتراف، لم أقاوم، أخبرتها بكل ما حصل لي قبل سنة أو أكثر، الوقت عندي عقارب لا أهمية لثوانيها.

أخبرتها بكل ما تعرَّضتُ له من مذلة وإهانة، وبكلِّ أحلامي التي باءت بالفشل، أخبرتها عن "الباشا". فاجأتني كثيرًا بردة فعلها، حالة من عدم

الاهتمام والإحساس علت تقاسيم وجهها، وكأنها حُقنت بمصل اللامبالاة. لم تنبس سوى بجملة سخيفة، تفتقر التقدير الحقيقي للموقف:

_ ليست نهاية العالم آدم، ستنسى مع الوقت، ولا تتهاون مع نفسك بأنك قبضت، وقبلت النقود من "الباشا". لم أستأنس أسلوبها في تلقي السر، واستهانتها بمدى الألم والمرارة.

صدق القائل: "الألم جمرة لا تحرق إلا من أصابت كفه ". بنفس اللحظة الذي طاوعني لساني على إفشاء السر، ندمت. والندم شعور قاسٍ يجلد ذاتك، ويجعل العقل مضطربًا. الصمت لن تندم عليه مطلقًا في حياتك، إنما الثرثرة والبوح الإرث الطبيعي للحسرة.

أنجع طريقة للتهرب من لامبالاتها، وتهميش مصيبتي حد التسخيف، كان مبادرتي بالاستفسار عن أسرارها، وماذا تبيع ليلاً ويا ليتها لم تخبرني. بكل بساطة أخبرتني:

_ أبيع الحب لمن أراد إلى ذلك سبيلاً، لكافة الجنسيات ولكل الأعمار، السلعة التي أبيعها مجزية، علمتني بهية كيف أروج لها بأعلى الأسعار.

لم أستطع تأجيل ثورة غضبي إلى أن تنتهي من الكلام، بل صفعتها بكل ما أوتيت من جَلد، لم تنزعج سلمى إطلاقًا، بل على العكس ابتسمت ثم اقتربت مني هامسة: تحب العنف؟ سأعرض عليك عرضاً مجانيًا الليلة، لن تندم.

أثارت جنوني، وفي ثوانٍ معدودة، وجدت سكينًا لا أعلم مصدرها، في يدي، مررتها على رقبتها دون وعي مني، وأنا أصرخ: الحيَّةُ الرقطاء، تغوي بالحرام حتى أخيها، لحمها ودمها لتدس السّم في عروقه.

دفعتني وهي ترتعش، لامَسَ نصلُ السِّكين جلدها؛ فأصاب منه جُرحًا سطحيًّا، وعندما يغضب الأرنب؛ يُصبح أشد شراسة من الثعلب نفسه.

أصابني منظر قطرات الدم بالجمود والانعزالية، ونام عقلي على مفترق اللاوعي، فلم أعد مدركًا لما حولي يدور، لم يوقظني إلا صوتها، وهي تصرخ ضاغطة على الجرح بيدها، والخال المقرف، تكاثر الخلايا السرطانية نذير شؤم بما قد يأتي، تفوح منه رائحة قيح نتنة، كلما ارتعش خدها أكثر: لست أخي، أنت لقيط، ضحية مثلي، وجدتك بهية طفلاً تائهًا في مكان ما، أو اختطفتك، لست أعلم، شهادة ميلادك، شهادة مزورة فعليًا، حقيقية في سجلات الأحوال، والآن وقت الحساب، فاستعد. هي معادلة بسيطة يا آدم، كمن يُربِّي حَمَلاً صغيرًا؛ ليُذبح حينما يصبح خروفًا، هل فهمتَ الآن؟.

زاد جمودي، المفاجأة صعقتني، أأغضب أم أشتم أم أسخر من نفسي؟. كالأبله المُسيّر توجهت حيث رقد والدي المشلول، فقد سمع على الأقل آخر ما دار من حديث، صراخ سلمى أيقظ حتى عمر وعلي، وفي خرابتنا لم يكن للجدران أسرار. الحقيقة كالموت مؤلمة وقوية، تقتل شهوتنا بالعيش.

نظرت لوالدي طالبًا برهانًا ودليلاً، علّه ينفي ما أتاني من مصيبة عظيمة. دموع عيني العاجز المريض كانت تأكيدًا، وجفناه المسدلان حفرت قنوات على خديه، لكشف المستور برمشه المبلل بغزارة، كأنه غسلني بها مواسيًا، ثم شيع جنازتي لينطق الصدق وتنتهي المراوغة والكذب. عينا والدي المعلقتان بخزانة بهيّة الخاصّة المحظورة، أشارت لي أن أفتحها، كسرت زجاجها بيدي، ووجدت شهادة ميلادي.

قد تكون مُزوّرة؛ ففي ظل الحروب الأهلية الطائفية التي دامت عشرات السنين، لا بد وأن الفساد أدى إلى الخلل الإداري في جميع مؤسسات الدولة، كما قاد إلى الإفلاس والموت والنزوح والتشرد.

بالإضافة إلى أن الحرب تعدت الطائفية، إلى حرب الآخرين على أرض لبنان. نعم هي مزورة، حتى دمنا وانتماؤنا مزيف، ولكنني لا أملك غيرها برهانًا على وجودي على سطح الأرض وبين الأحياء. وضعتها في جيبي، قبّلت يدَيْ المشلول، وكأنّني أُسامحه على ما اقترف من خطايا

بحقّي، وحقّ سلمى وعمر وعلي. خرجت بسرعة غير آبه باعتذار سلمى وترجيها، ولا بتساؤلها إلى أين سأذهب، وقد أوشك الفجر على البلوج؟ مؤلم أن تعيش في كذبة، لم تُهدِ لك إلا الألم، حتى ذكرياتي سرقوها مني، كل ما أنا فيه خدعة، وليس هناك حقيقة، إلا تلك الأم الحنون، شبيهتي في الحلم.

هربت هذه المرة دونما عودة، فإن كانت الخرابة ملاذًا وسقفًا يحمي، فالرصيف أنقى والسماء أطهر، ورحمة الخالق بنا أوسع.

***

9.الهروب:

حوّلتني لحظة اعتراف غاضبة إلى تائه بلا عنوان، لحظة ليتها لم تكن ولم أكن. ليت سلمى أصابها الخرس، قبل أن تتفوه بذاك الإثم، فإلى أين المسير الآن وأين المستقر؟

تخبطت على الأرصفة الغريبة عني، نكرتها حتى قدميّ وحذائي المهترئ، كم كثير من الأسئلة دارت في فضاءات عقلي، فهل من إجابة واحدة تروي ظمأ الروح وتوقها إلى النجاة؟.

أنهكني التعب، ولم أجد إلا مساحة صغيرة بين أكياس قمامة ونفايات بشرية، وما أكثرهم في بلدي. استلقيت قليلاً لأنام، هل نمت فعلاً؟! أم أنه الإعياء والذهول الذي كنت فيه أفقدني الوعي لساعات؟ استيقظت على ركلة قوية في خاصرتي من رجل تجاوز الثلاثين، رافقه بعض المراهقين الأصغر مني سنًا، بصوته الأجش صرخ متوعدًا: هذه منطقتنا، محظور عليك التواجد هنا، ابحث عن رزقك في مكان آخر، هيّا، اذهب.

الرعبُ، جعل لساني حطبة جافة، فشل حتى في الرد، أطلقت ساقيّ للريح وهربت. حتى حاويات القمامة لها سكان يملكونها، سكان بوضع اليد. كما في الشوارع لكل منا مكان مخصص، فلا يجوز للغير التطفل والتجول فيه. قانون وضعته عصابات منظمة من المتسوّلين والمجرمين، يلتزمون به فهو شريعتهم الوحيدة. كم كنت جائعًا، لم أستطع الظهور في الأماكن التي تعودت البيع فيها والتسوّل؛ فستجدني بهية بلا شك، فلها من الأعين ما لا يعد ولا يحصى، ولا يُسمح لي وفق قانون الشارع بالتواجد في المناطق المُخصَّصة لغيري. لذلك قررت وبدون تردد، لن أتسول، وسأبحث عن عمل.

أذكر أنني لم أترك محلاً تجاريًا أو صناعيًا وجدته في طريقي، إلا وحاولت أن أعمل به، مهما كان العمل مهينًا أو صعبًا. لم يكن لديّ مانع أن أعمل طوال النهار، مقابل وجبة أو وجبتين من الطعام ومأوى، إلا أن طلبي جوبه بالرفض القطعي، لم أحقد على أرباب العمل أو ألومهم، فثيابي المتهدلة الوسخة، شعري المنكوش، ورائحتي القذرة، ناهيك عن

تلعثمي وغموضي، كل هذا لغى كل أمل لي بإيجاد عمل. فقدت الرجاء، كما فقد بطني آخر ما احتواه من طعام قد تناولته قبل يومين، وليس للمعدة الجائعة أن تسمع صوت الضمير أو الكرامة. حزمت أمري بالعودة إلى "الباشا"، لمرة واحدة فقط.

شاطئ بيروت يغريك وبشدة للمشي والركض لتستمتع بجماله، ولكن هيهات لمثلي أن يخرج من عبودية جوعه وجسمه المنهك، إلى جمال الطبيعة والتأمل بها. ساعات طويلة من المشي، إلى أن وصلت إلى الحي المنزوي بالشارع الخلفي، المصعد كان يعمل.

بدون تردد صعدت إلى الطابق الرابع، لم أهتم لما سيحدث لي من مذلة ومهانة، فقط كنت أتساءل، هل سيتذكرني بعد مرور أكثر من سنتين، وهل هو موجود أصلاً؟ حدثتني نفسي.

طرقت الباب بعزم، أذهلتني المفاجأة، طفلة لم تتجاوز التسع سنوات من عمرها هي التي فتحت الباب، وخلفها والدتها أغلب الظن. لم أنتظر سؤالهم، بل بادرت: هل " الباشا " موجود؟

أجابت الوالدة اللطيفة: لا يا بنيّ، نحن مستأجرون جدد.

خاب حلمي بشبع مزيف ولو لساعات، وبضع من ليرات دنيئة، قد تساعدني على إيجاد مأوى أو عمل. لا بد أن "الباشا" وأعوانه، وجدوا مكانًا آخر لاقتراف جرائمهم المتكررة. نظراتي المنكسرة الواضحة الفاقدة للأمل، وصراخ معدتي المستجدي، وصل وقعها إلى مسامع نقاء سريرة الطفلة على الباب، الذي كاد أن يُغلق في وجهي. بثغر باسم يحمل كل براءة الكون، ونظرة خجولة همست لوالدتها:

_ هل تسمحين لي بإعطائه بعضًا من الطعام؟ أرجوكِ ماما.

تقترف البشرية كثيرًا من الأخطاء، ولكن أسوأ جريمة تقترفها عندما تجعل الأطفال كبارًا، يتخلون عن طفولتهم، ويزرعون شوكًا في قلوبهم عوضًا عن المحبة والعطاء. يصمون آذانهم عن ألم غيرهم ومعاناتهم. ما وصل الطفلة لم يصل مسامع الوالدة أبدًا، لكنها سمحت لها، لتسعدها هي، فكرت بابنتها وليس بحاجتي.

غابت الطفلة لحظات، وعادت محملة بكيس. كأنها منحتني بعضًا من بياض قلبها الصغير، قبل أن ألتقطه بيدي القذرة، وكرامتي المشروخة. كيف سمحتُ لنفسي أن أفكر بالباشا مرة أخرى؟ هنت، وهانت روحي، احتقرت جسدي فلم أعد صالحًا للحياة الكريمة، أصابني العطب والموت غايتي. الانتحار ينهي عذابي، فكل الطرق إلى الكرامة تقتضي الرحيل عن هذه الدنيا، وكل السبل إلى الحياة مسلكها الذل والهوان.

الموت لا يعني شيئًا، إذا كنت تهوي صاغرًا خانعًا في كل لحظة. جوارحي طلبت مني كأسًا من فناء، والجبن فيّ منعني من تجرعها، ورميَ نفسي تحت عجلات أول مركبة قادمة.

أنقذني من شيطاني المتمرد مرة ثانية، بوق سيارة متكرر، وبوق السيارة في بلدي مع أن له صوتًا واحدًا، لكنه يملك معانٍ ودلالات كثيرة، قد يكون شكرًا، أو شتيمةً، أو نداءً، أو تنبيهًا، نبّهني أن أتقِ الله يا آدم، فيما وهبك

من جسد وروح، ولا تتعمد قتل نفسك مهما بلغ بك اليأس، استغفر لمن خلقك، وارجع عن ذنبك. كل ذلك، بصوت بوق مزعج.

انتقلت إلى الرصيف الآخر، الأرصفة لأمثالي متشابهة. توسدت نعلي لأغط في نوم عميق، بعد أن تناولت بعض الخبز وقطعة كبيرة من الشوكولا، يبدو أنها كانت من مخصصات الطفلة وآثرتني على نفسها، بالكيس أيضًا، وجدت لعبة الكترونية تعمل بالبطارية بحجم نصف الكف، وبادر ذهني: قد أجد من يشتريها برغيف خبز أو رغيفين.

اغتصبت شفاهي من أعماقي ابتسامة، فالجائع لا يُلقِ بالًا، لرذيلة تسلية الأغنياء وفجورهم. أطفأتُ تلك الكرة الملتهبة باستفسارات لا جدوى منها، يسمونها رأسي، ونمت. فطرة النوم الإلهية نعمة، تعطيك وقتًا للسكينة والصمت والأحلام حلم بميلاد جديد. "وما فاز إلا النّومُ ". لم يعد يزعجني في منامي، لا أولاد الليل ولا خفافيش حاويات النفايات، أصبحت بارعًا جدًا بالاختباء منهم حتى سموني الشبح.

وبعد فترة من الزمن، تقرّب بعضهم مني، أصبحوا أصدقائي، وتركوني لألتقط قوت يومي من الحاويات. يُفاجئك ما قد تجد في تلك الحاويات المقرفة، الكثير والكثير، ملابس، احتياجات، طعامًا فاخرًا، وغير تالف أحيانًا. لو نبههم ضميرهم إلى حفظه، أو إعطائه للفقراء، حتى لا تعافه النفس من وجوده مع فوط الأطفال والمخلفات القذرة.

البطر والإسراف، مرض الأغنياء، إخوان الشياطين. أولئك المبذرون الجاحدون بالنعمة أسوأ من البخلاء، فهم ينفقون ما لهم وما لغيرهم، وأنا متأكد أن الفقر والجوع، ما هو إلا نتاج إسراف بعض الأغنياء. أما آن لنعمتهم أن تزول؟! هكذا عشت بين الحاويات، أنام قريرًا وآكل من المخلفات، وقد أرتدي بعضًا مما وجدته متاحًا ويناسبني.

لم يهمني شيء، ولم أحافظ على شيء، إلا على شهادة ميلادي، وضعتها في كيس شفاف من النايلون، فهي الحرز الوحيد التي توثق بأنني موجود وأن لي اسمًا.

أطالب بالثأر، لكل فقير جائع، من كل غني قابضة يده إلى عنقه، لم يفكر بالعطاء يومًا. أطالب بالثأر، لكل متشرد يلتحف السماء ويفترش الأرض، نعاله وسادته، من كل نائم على فراش وثير، ينعم بالحياة الرغيدة. لكل طفل لا حول له ولا قوة، من كل "باشا" منحرف. أطالب بالثأر لمعدتي، التي آلمتني أيامًا، من كل صاحب صيدلية، لا يوزع بعضًا من الأدوية بالمجان لصالح الفقراء الذين لا يملكون ثمنها.

يبدو أنني تناولت شيئًا ملوثًا من مخلفات الأثرياء، أبت بطني هذه المرة هضمه، فالأثرياء والفقراء يتشابهون في المخلفات القذرة، مهما تباعدت المستويات المادية والاجتماعية.

الألم عصر أضلاعي أكثر، أدَّعي القوة والصلابة أمام أصدقائي، خفافيش الليل، لكن الألم فاق قدرتي على الاحتمال. ابتعدت إلى حي ليس بقريب، حتى لا يلمحون ضعفي وأنا أتألم.

الحمّى أصابتني بالهلوسة والهذيان، لم يسعفني النوم بلحظة راحة، ولم يمنحني ما اعتدت عليه من أحلام، قطرات من العرق استوطنت جبيني، ثم تداعت على عينيّ، فأصاب ملحها الجفون والمآقي، فأغمضت مجبرًا.

مرّ وقت طويل، تراءت لي أشياء لم تكن موجودة فعلاً، ومنها شبح بهية وسلمى، قرين "الباشا" وسائقه والخادم، صديقي الملاك الناصح، وصوته وهو ينادي من بعيد، احذر يا آدم!

صوتٌ آخر حنون، تجاوز أذني واستقر في قلبي المتعب، لم أسمع برقته، منذ افترقت عن صديقي الوحيد بالحديقة المشؤومة، ومنذ أن جافتني أمي في الحلم وامتنعت عن الحضور.

كان حلمًا، لا بل حقيقة! دنا مني الصوت، شبح رجل، مسحت عينيّ من العرق، حدقت مرة أخرى، إنه ملاك آخر في هيئة رجل بمنتصف العمر:

-ما بك يا ولدي؟. هي آخر ما سمعت، ثم فقدت الوعي.

***

10.الشيخ عماد:

تنعكس الروائح الطيبة إيجابيًا على الوعي، تحفزه بشدة، بعد أن يترك بأنفك وخزًا غامضًا، هي أول ما أيقظني. رائحة أعواد القرفة، لا أبالغ إن نسبت إليها تخفيف بعضًا من ألمي، صداع، وجع في البطن وسائر جسدي.

انتقل التحفيز إلى عينيّ ففتحتهما ببطء، انتقلت إلى عالم آخر على ما يبدو، أنا في الجنة. المكان بسيط لكنه نظيف، فاحَ من أرجائه عبير الطهارة والخير. لكن، هل يشربون مغلي القرفة في الجنة، أو يطالعون الكتب، وأيضًا يقومون بالطهي؟!. لا أعتقد، كان هناك لبسٌ ما، وذلك الخيال الذي يتراءى لعيني المتعبتين، هل هو إنس أم جان أم خيال ملائكة؟

دقائق، استعدت فيها بعض التوازن العقلي، وعقلنا البشري تستطلع خلاياه ملايين الأفكار والصور في ثوانٍ. عُدت إلى رشدي، حينما التفت

الخيال مبتسمًا، وكيف لقلب ساده الظلم والظلام أن يُفتح، ليستقبل كل ذاك النور الروحي بثانية واحدة؟

ابتسامة، نظرة عطف وحنان صادقة كانتا كافيتين لتطمئناني، بصوت هادئ:

-الحمد لله على السلامة يا ولدي، أنا الشيخ عماد، وجدتك البارحة مغشيًا عليك من الألم، ولكن الطبيب جارنا أخبرني أنك ستكون بخير بعد عدة أيام إن شاء الله.

هربت كل إجاباتي، اختبأت لتحتمي تحت عباءة الشيخ الطيب. التزمت الصمت، وبعض الأمور لا تدرك إلا بالصمت، فالكلام وكثرته يربط البشر في عقد مزرية، والحب الخالص والإنسانية، تفك أصعب العقد.

محبة خالصة، ربطتني بالشيخ عماد منذ اللحظة الأولى، وزادها بقلبي تشبثًا كلمة يا "ولدي". اقترب مني حاملاً الطعام على طبق من الألمنيوم.

الشيخ عماد، في منتصف العقد الخامس من العمر، تنسمت من عباءته رائحة الطيب والمسك، جبهته العريضة وكأن بها سراجًا مضيئًا، حواجبه الكثيفة السوداء تناثرت بعشوائية، معلنة النصر على كل شيطان آثم، ألقت السلام على عينين لامعتين بالتقوى، يراها الناظر تضحك قبل أن تفكر الشفاه بالابتسام.

تدلت ذقنه البيضاء الطويلة بمهابة وإصرار، لتطرد الوسواس والحسد، قد زادته وسامة وألقًا ونورًا ربانيًا. حاولت أن أتكلم، لكنه أشار عليّ بالصمت:

_ تناول غداءك يا ولدي، ستخبرني ما تريد، ونحن نحتسي الشاي بالقرفة، وبعد أن تسترد جزءًا من قوتك وعافيتك.

تناولنا الطعام بهدوء وسكينة، تمنيت لو تتوقف الحياة عند تلك المحطة لأبقى أنا والشيخ عماد، نتناول الطعام، وأسمع منه إلى الأبد لفظ يا "ولدي".

مع أول رشفة من كأس الشاي الساخن، أخبرته بكل ما مرّ بي في حياتي.

بهية، الباشا، سلمى، الصديق الملاك، عملي المخزي، شهادة الميلاد التي أغلب الظن مزورة، والدتي في الحلم، الحاويات، الهروب، وكلّ كلّ شيء.

تركت العنان للساني الذي طالما أخرسته الحاجة والظروف والخوف. ربما تكلمت ساعات طويلة متواصلة، وهو منصت بحزن، منكسًا رأسه على صدره، لم أصمت إلا حينما فرت من عينه دمعة، برهنت لي بشدة أنه صدّقني، دمعة غارت في مسام جلدي، لامست جروح الماضي، حتى كادت أن تشفيها كلها، فعادت نسيًا منسيًا.

شقّ الصمت صوته الهادئ: مهما حدث في حياتك من مآسٍ، ومهما بدا لك الماضي مزعجًا مؤلمًا، فلا تجعل لليأس بابًا مفتوحًا إلى قلبك، إن كانت الطرق مغلقة في وجهك، فلا بد أن الله سيفتح لك بابًا جديدًا، فأحيانًا بعض المصائب نعمة، يصب بعدها الرحمن عليك الخير صبًا، وكثيرًا مما قد تحرم منه يجب أن تحمد الله عليه، بعد الليل يا بنيّ يبزغ فجرٌ، ويسبق العسر يسرًا ويتبعه يسر، اسعَ إلى تغيير واقعك، بتحويل

الكره إلى حب، ستنضج ثقتك بنفسك أكثر، واجعل اللحظة التي تولد من بين جوارحك، لحظة ناجحة وتجربة سديدة، بإذن رب مقتدر قادر.

_ يا شيخي، هل تستطيع سمكة ضعيفة أن تتحكم بموج هائج، بحر شيطاني من الكائنات التي لا ترحم؟.

_ يا ولدي، الشيطان الحقيقي ليس قوة تهاجمك من خارج جلدك، بل هو صوت ينبعث من داخلك، فيتمثل لك بشرًا سويًا حولك، واجه ظلامك لتنجو، واجعل الله في قلبك، فخصمك هو نفسك.

_ لا يا سيّدي، خصمي الشارع والتشرد، أولاد الليل والفقر، الحاويات والجوع، خصمي بهية والباشا، وأمثالهم، هل تستطيع أن تخبرني ما هو مستقبلي؟ ما قد يكون مصيري وأقراني؟.

أطرق الشيخ عماد مليًا، وكأنه يفكر باتخاذ قرار ما، قرار يشوبه الحيرة، ولكن لا بد منه. نصف ساعة من الهدوء التام، ثم فاجأني بقوله:

_ اسمع يا ولدي، بعد شهر ستبلغ الثامنة عشرة من عمرك، أنت راشد تعي ما حولك، قلبي المريض أعجزني عن الزواج فلم أرزق بالأولاد، يبدو أنه رزقني بك، ولو بعد حين لأتخذك ولدًا، ابق معي، سنجد لك عملاً، وربما مخرجًا مما أنت فيه، اقتسام اللقمة يزيدها بركة، لست غنيًا، وإنما راضٍ برزقي، أعمل في خدمة المسجد القريب، وسأجد بعون الله عملاً آخر لي ولك أيضًا.

لم أتمالك نفسي بل انهلت على يد الشيخ أقبلها، وهو يبعدها ماسحًا على رأسي وجبيني. بدأت صفحة جديدة، ووضعت الماضي ورائي.

***

وقفت في إحدى الأيام مندهشًا، من ضخامة مكتبة الشيخ عماد، مئات المجلدات والكتب العلمية والدينية والتاريخية، الفلسفة والأدب لهما حيِّز لا يستهان به.

نغمة ضحكته التي أحبها أيقظتني من شرودي: اسمع يا بني، تستطيع أن تجعل عقلك أكبر من ضخامة المكتبة التي تدهشك، كلما قرأت كتابًا استوعبه دماغك فأصبح أصغر منها ومن مستوى تفكيرك، وهكذا إلى أن تحتوي كل ما بداخلها من علم ومعلومات، القراءة والكتابة هما أهم سبلك للنجاة، فتسيطر على لا وعيك، في أحلامك وكوابيسك، حتى مشاعرك.

ثم تابع بجدية:

_ قبل أن يخترع السومريون القلم في مطلع الألف الرابع قبل الميلاد، وهو عبارة عن عود من الخشب وألواح طين لزجة، كان الإنسان القديم يشق جسده، ليرسم بدمائه على جدران الكهوف، معبرًا عن خلجات نفسه، لا بد يا بني من القراءة والكتابة لحفظ التاريخ والذكريات، وربما لأرشفتها، ولتدوين الحاضر وتوقعات المستقبل، والأهم من كل ذلك، تعبيرك بالكتابة عن نفسك يجعلك إنسانًا أقوم وأقوى.

_ ولكنني يا والدي، لم أتعلم سوى النذر اليسير من القراءة والكتابة.

_ فلتعلم يا آدم! ذاك الصديق أهداك هدية لن تفنى أبدًا، مع مرور الأيام، هدية هي المفتاح لكل ما ستعرفه في المستقبل، ستشكره عليها طوال عمرك، وأنا سأتم معروف صديقك، وأنتقي لك الكتب بعناية، جواز سفرك إلى العالم هو الكتاب، فلست بحاجة إلى السفر إذا استخلصت جوهر الخبرة، بالخوض في أعماق روحك مع تلك الجواهر، وأشار بيده إلى المكتبة الضخمة.

بالنسبة لي أصبح العالم الذي يتحدث عنه يتمثل بشخص واحد، هو الشيخ الجليل عماد، أكلمه على الدوام ثم نتناقش معًا فيما تعلمت منه، أو ما اختاره لي من الكتب للقراءة. أسمع صدى كلماتي تتردد في نور وجهه، هذا النور الذي أشعرني دومًا بالخوف والرهبة، من فقدانه ذات يوم.

ساعدته بخدمة الجامع أحيانًا، معظم معارفه سألوا عني، وعن ظهوري المفاجئ في حياته، الشيخ عماد أوقف كلامهم أمامنا ومن وراء ظهورنا استغابةً، بجملة واحدة:

_ "هو ولدي". كلمتان منعتا الاستفسارات والأسئلة، التي كانت تراود الفضوليين ممن كانوا حوله.

تعرفت على أصدقاء جدد، وأصبح يُشار لي، بآدم ابن الشيخ عماد، اسم افتخرت به وعشنا معًا. الشيخ ينام في الغرفة الصغيرة، وأنا في الأخرى الوحيدة، التي تحوي على المكتبة، وهي في الأصل غرفة جلوس بسيطة.

قرأت بنهم كل ما اقترح عليّ والدي الشيخ، أصبحت بارعًا في القراءة، دون صعوبة التهجئة. فضلت على الدوام البقاء في البيت وقراءة كتاب جديد، على أن أشارك بعض الأصدقاء يوم عطلتهم، بحفل أو سهرة أو حتى بلعبة طاولة أو شدة، كما فعل أقراني. لم أورط نفسي في مشكلة أبدًا، طوال الفترة التي عشتها مع الشيخ عماد تشبهت به حتى النخاع، أحيانًا أطلقت لحية صغيرة، حتى سماني بعض الأصدقاء مازحين، الشيخ آدم الصغير.

اختفت الكوابيس إلا فيما ندر، فعليًا راودني كابوس الباشا مرة أو مرتين في السنة. لكن يد والدي الشيخ الحنونة، أيقظتني، وصوته وهو يقرأ المعوذات، أعاد لي عافيتي وعقلي، وأبعد عني الكوابيس إلى أن تختفي، فأحمد الله شاكرًا

***

11.الثانوية العامة:

أكره المفاجآت فلم ينلني منها إلا المصائب المتكررة في حياتي، رغمًا عنها بقيت حيًا، أمقتها إن كانت سعيدة أم تعيسة، إيجابية أو سلبية، فهي من ضمن إطار المجهول، شبح يخنقني بغض النظر عما يرتديه من ألوان.

أفضل أن تكون حياتي منظمة واضحة المعالم، الرتابة بالنسبة لي ثبات وقوة، المفاجأة تصيبني بفزع. هذا ما حدث عندما فاجأني والدي الشيخ عماد، بعد عامين كاملين من مكوثي معه:

_ ولدي آدم، سأقدم لك طلبًا لامتحان الشهادة الثانوية لهذا العام، وسنبذل معًا أقصى ما يمكن من وقت وجهد.

سمعت خفقان قلبي بأذني، ضاق تنفسي، شلّت الفكرة حركتي تمامًا، حتى أنني فقدت كأس الشاي من بين أصابع يديّ، فسقطت أرضًا، وأثارت الفوضى على الأرضية النظيفة، وأسفل بنطالي.

ابتسم الشيخ متفهمًا: لكل جديد رهبة يا ولدي، سأكون معك خطوة بخطوة، لنحوّل الصعب بإذن الله سهلاً.

لم أكن لأردَّ طلبًا أو قرارًا لوالدي الشيخ عماد؛ فهو الذي احتضنني من الشارع، بعد أن تخلت عني الحياة، وكل البشر، إن صحّ تسميتهم بشرًا.
هو من أبعد كوابيسي الشيطانية، فإن حضر، حضر معه الخير وطيّب المكان نور الملائكة. وافقته فورًا، أذعنت لرغبته، واثقًا أنها تهدف إلى صلاح مستقبلي، الذي وعدني به يوم جمعني معه القدر، راجيًا لي الأفضل. رغم ثقتي، بقي القلق يشتت فكري، يحاصرني بالأوهام والخيالات، لا يبددها ويعزز مناعتي منها إلا ضحكات شيخي المتفهمة.

لحسن حظي اختفت تمامًا، عندما بدأتُ عمليًا التحضير لامتحان الثانوية العامة، أضحى همي الأكبر أن أكون عند حسن ظن والدي عماد، وهو الذي بذل مجهودًا جبارًا، فكان الوالد الحنون، والأخ العطوف، والمعلم الشديد على طالبه، يعنفه حينًا، يشجعه أحيانًا، ويرشده دائمًا.

مع اقتراب أيام الامتحان، أعلن بيتنا المتواضع بجدرانه وكتبه وساكنيه وكل ما فيه، حالة من الطوارئ، الدجاج المجمد واللحم والفواكه، قررت أن تتواجد في ثلاجتنا بوفرة معلنة المكوث والمساندة، إلى حين انتهاء الفترة المصيرية المهمة.

انتهت الامتحانات.. بدأ الدعاء، عاد القلق والتوتر. كلما لمحت والدي يصلي حثثته على الدعاء لي، فيقول: أدعو لك في كل الأوقات يا بني، الدعاء نعمة عظيمة، هي شيفرة سريّة بينك وبين خالقك، تطلب منه ما تشاء، ويعدك بالإجابة إما في الدنيا، أو يدّخرها لك في الآخرة، الداعي محبوب عند الله عز وجل، لأنه بدعائه يقرّ بالعبودية والضعف أمام عظمة الخالق، اِعْلم يا آدم، أن قلبك يخفق وتشتاق لمعرفة النتيجة، فجميعنا نحب النجاح والتفوق، ونخاف من الفشل، لكن دعاءك وطلبك العون من ربك يجب أن يكون في كل الأوقات، وليس فقط عند استلام النتيجة. اعرف ربك في حالات سعادتك، وليس فقط في بؤسك وشدتك، أقرّ الله عيني بك وبنجاحك يا ولدي.

جاء الموعد المنتظر، رقصت الكلمات عندما قرأتها بالجريدة الرسمية أمام اسمي، ناجح بتقدير جيد. لم أصدق، خرجت مسرعًا إلى مركز الامتحانات الرئيس، تجاوزت تزاحم الأقدام، انزلقت من بين تجمع الطلاب والطالبات، كما ينزلق زيت بخفة على بشرة مولود.

وصلت إلى الورقة الطويلة جدًا المعلقة على جدار المركز. تراءى لي اسمي يرقص من جديد مع عبارة، ناجح بتقدير جيد. لم أتمالك نفسي، جلست على الرصيف القريب، أجهشت بالبكاء.

دموع الفرح تختزن حقيقة غريبة، فهي عمل مناقض لمشاعر الإنسان في نفس اللحظة، البكاء فرحًا، كما أعتقد، طريقة يتبعها جسدنا، لتفادي الانجراف وراء المشاعر القوية الحادة، هي أشبه برد فعل سلبي على مشاعر إيجابية قد تحقق بعض التوازن العاطفي، وتحمي من الجنون.

يبدو أنني بالغت في تحفيز رد الفعل المضاد، إلى أن اجتمع المارون من حولي، معتقدين بفشلي ورسوبي. لم أكن الوحيد الذي بالغت في آلية مشاعري، يدٌ حانية لامست كتفي، دموع غزيرة اختلطت مع دموعي، فلم أعد أفرق هل أنا الذي أبكي أم عينٌ أخرى؟ رفعت رأسي لأجد والدي الشيخ أتى ليطمئن إن أثمرت جهوده.

فرحة النجاح لا يضاهيها فرح. وزّع والدي الحلويات على كل حارتنا، وحتى على مرتادي الجامع، غير آبه بالضيق المالي، وإني لأظنه في تلك الأيام من شدة فرحه صرف كل مدخراته على الحلويات والهدية.

هدية نجاحي، هاتف محمول، هدية مثيرة نادرة. في أواخر التسعينيات كان قلة من استخدم هذه التقنية، رغم علمي بقلة ما قد يحتويه من أرقام، ثلاثة أو أربعة على الأكثر، إلا أنني كنت فخورًا به، أظهره دائمًا، من أعلى جيب قميصي، أو أضعه على حزامي ليظهر للعيان جليًا.

حلّ الجد، ماذا بعد؟!

شارفت أيام الفرحة الكبرى على الانطفاء على مرمى الاعتياد، استوطن مكانها السؤال البديهي، ماذا بعد الثانوية العامة؟ سؤال بادر إلى طرحه عقلي، قبل أن يطرحه والدي الشيخ: التحصيل الجامعي يا ولدي، طريقك الآمن، لن أتركك على حافة المستقبل، بل ستتجول في أغواره واثق الخطى.

ثم أطرق برأسه قليلاً، وعلا الحزن جبهته العريضة وقال: فقط نحتاج لبضع من الوقت، إمكانياتنا المادية الحالية تفوق قدرتنا لتسجيلك في جامعة محترمة، ولكنني أعدك وعد مؤمن، السنة القادمة أول من سيسجل اسمه في سجلات الجامعة هو أنت، سأبحث عن عمل آخر ونجد حلاً.

دون أن أتزحزح من مكاني، عانقته بعينيّ بشدة، وابتسمت: يا والدي، عام واحد ليس بوقت طويل أبدًا، أحتاج إلى الراحة بعد تعب الثانوية

العامة، وعليّ أيضًا البحث عن عمل مُجدٍ أكثر، من مساعدتي لك بخدمة الجامع، المهم أننا معًا والباقي هيّن.

بدأنا رحلة البحث عن عمل مناسب، لأنتسب إلى الجامعة، وأتابع تحصيلي العلمي. أملي بتحسن وضعنا المالي وإيجاد عمل ووظيفة مناسبة كان كبيرًا، وخاصة وأن لبنان عام 2000، شهدت تطورات اقتصادية جيدة، تحديدًا بعد الانسحاب الإسرائيلي من الجنوب، حيث اعتبره لبنان والعرب عامة نصرًا كبيرًا.

الانسحاب أعاد الاعتبار للمقاومة، حينما فشلت التسويات السياسية في تحقيق شيء يذكر، حققت الحركات الشعبية مكاسب سياسية ومعنوية، وأكدت قدرتها على العمل والتعاون، رغم الاختلاف المذهبي والعقائدي والسياسي.

استقرار الوضع الأمني في تلك الفترة ساعد على جذب المستثمرين، كما زادت الاستثمارات وفرص العمل. حلمي بالانتساب إلى الجامعة سيتحقق، شعرت بذلك. شهران كاملان، لم يقترب فيهما حلمي من حيز الواقع، بل على العكس، أنشب اليأس والإحباط، أظفاره لينالا مني.

سمعت حركة غريبة في غرفة والدي الشيخ عماد، الوقت متأخر قارب الواحدة ليلاً، معتاد هو على النوم باكرًا، والاستيقاظ قبل الفجر، اقتربت من غرفته، طرقت الباب، سمح لي بالدخول.

فوضى عارمة اجتاحت غرفته الصغيرة، تمركزت على سريره الخشبي القديم.

كتب، مجلدات، أوراق. سألته مستغربًا: عن ماذا تبحث في هذا الوقت المتأخر من الليل بين الكتب؟.

_ أبحث عن وصفة سحرية لوفاء البشر، عن وسادة إخلاص وثقة، أتكئُ عليها فلا تغدر، عن شعاع نور ورحمة، تنير قتامة قلب الصديق وتعيد الحبيب سيرته الأولى، وترقي الأخ على ضلع المودة، أبحث عن سيف عدل، كسيف صلاح الدين، يهتك ستر الشر حتى لا يدرك الخير، فنهلك ونفنى.

أجبته بحنان: روحك النقية يا والدي الشيخ سترشدك.

_ وقد يرشدني يا آدم هذا الفاكس، الذي وصل صباحًا من المكتبة القريبة.

مدّ لي يده بورقه بيضاء، اتضح لي فيما بعد، أنها رد لرسالة سابقة مرسلة من قبل والدي الشيخ: أعتذر أخي عماد عن تلبية طلبك، لا أستطيع اقراضك المال حاليًا ولكنني أستطيع أن أوصي بك، إن أردت العمل لدى مطبعة صديق لي في صيدا، إن ناسبك، يدعى أبو مريم، وقد أرفقت الرقم والعنوان، ودمتم. أخوك عارف.

هي رسالة من أخ الشيخ الأكبر منه سنًا، الأخ المليونير، المقيم في الولايات المتحدة الأمريكية. على الدوام ميسور الحال لا يشعر بالمعسرين أمثالنا، حتى لو بينهم صلة دم وقرابة، فعند ذكر المال يتحول الدم إلى ماء آسن.

لمحت نظرة ذل السؤال في عيني والدي؛ فبادرته: عندما يقهرونك تموت الأمنيات غصبًا، تعلمت منك، أن بوركت أمنية تفلت من عتبة اليأس، تعلمت أن لأحلامنا حبالًا متينة موصولة برب على فعل المحال قدير، فلا تحزن أرجوك والدي، ولست مجبرًا على الانتقال من بيروت إلى صيدا.

_ لست حزينًا، إنني أفكر بما هو أفضل لنا، اذهب للنوم الآن، وسأخبرك بقراري صباحًا.

استيقظت في الصباح التالي، وشعور الذنب قد اجتاح كل كياني، لولا مصاريف جامعتي اللعينة لما احتاج والدي أن يذل نفسه، للمليونير المهاجر لطلب المال، "عارف" الجاحد للأخوة.

بصوت دافئ حنون وابتسامة رضا وقناعة، كعادة والدي عند إيقاظي، استقبلت صباح اليوم التالي: هيا يا كسول! استيقظ، سنذهب إلى صيدا، لنقابل صاحب المطبعة، ارتدِ ملابسك، وسنتناول الفطور في الطريق.

***

12.صيدا:

صيدا، زيارتي الأولى لها، كانت مع والدي الشيخ. تقع صيدا جنوب العاصمة بيروت، تبعد عنها حوالي خمسين كيلو مترًا، استغرق الطريق أكثر من ساعة وربع، مع سائق تاكسي ممل، يتسابق والسلحفاة في سرعته، إلا أنني لا أنكر أنها كانت فرصة جيدة، للاستمتاع على خط الساحل الرابط بين بيروت وصيدا، وبجمال مزارع الموز والأفندي، كما تكثر فيها المسابح وصيد الأسماك.

أظن أن تسميتها الأولى باليونانية "صيدون"، وهي أول دولة بناها الفينيقيون، وأسسها صيدون بن كنعان، عام 2800 قبل الميلاد، ولهذا أخذت اسمها نسبة له.

وصلنا متأخرين إلى العنوان، ما بعد السلحفاة على ما أعتقد. هي ليست مطبعة عادية كما وصفها عارف الأخ الأكبر لوالدي، بل هي دار نشر فخمة، مبنى كامل من ثلاثة أدوار.

على السور الخارجي عرّش الياسمين، زهرة تتفتح كملكة، تنشر أريجها فتغنيك عن المهدئات، تخفف إحساسك بالقلق. إكسير الأمل، هذه الرائحة العطرة بلا أدنى شك.

قادنا الحارس إلى قاعة مكتب كبيرة. تساءل السكرتير بابتسامة لطيفة:

-هل هناك موعد؟

أجاب والدي: لا، قل للمدير لو سمحت، من طرف عارف بأمريكا. هزّ السكرتير رأسه موافقًا، واختفى لدقائق، ثم سُمح لنا بالدخول.

زاغت عيْناي على كلَّ ما حولي من فخامة، مقاعد الجلوس الجلدية، الديكور الأنيق، التحف الجميلة، المكتبة الأنيقة ذات الإطار البهي من الموزاييك، فقط ما أثار حفيظتي. صليبٌ خشبيٌّ، وصورة كبيرة للسيِّدة العذراء تحتضن المسيح عيسى - عليه السلام-.

-كيف لشيخ جامع أن يعمل في مطبعة، تعود ملكيتها لشخص مسيحي الديانة؟.

عرّف والدي عن نفسه، وعني كما اعتاد "ولدي آدم". شرح له ببساطة وصدق كل ظروفنا الاقتصادية، وأين نقطن، واستعداده التام لأي عمل يوكل إليه. تعلَّق نظري وهو يتجول بأرجاء الغرفة، على صورة لأبي مريم مع شابة جميلة، لم أتبين ملامحها جيدًا، لكنها أثارت صوت مشاعر مبعثرة في داخلي، صوتٌ من حفيف أوراق الخريف، ذاك الصوت الشاعري الهادئ الذي يعبث بدماغك، فيشل تفكيرك ويفقدك التركيز.

عادت لأنفي الذاكرة الحديثة لرائحة الياسمين، من على سور المبنى الخارجي، نسيت من حولي لبرهة إلى أن تهادى إلى سمعي صوت أبي مريم:

-أتفهم وضعك تمامًا، تستطيع استلام عملك في الأرشيف منذ الغد إن أردت، وراتبك الشهري الذي ستتقاضاه لن نختلف عليه، فأنا بحاجة

لرجل أثق به، وأضع قليلاً من حملي الثقيل على كتفه، ويبدو أنك أيها الشيخ الجليل موضع له، لكن، هل ستتحمل قطع المسافة يوميًا ما بين بيروت وصيدا؟.

_ لا تهتم سيد أبا مريم، سأكون عند حسن ظنِّك.

تقاسمنا العمل أنا ووالدي الشيخ؛ فخلال تواجده في المطبعة قمت بواجباته في المسجد، وقد أتقنتها حد العشق، خلال سنين معيشتي الطويلة معه.

عندما يعود بعد العصر إلى البيت، كنا نجتمع على طعام الغداء لمدة ساعة واحدة، أجالسُ بعدها القرآن وكتبي، هم فقط أصدقائي الأوفياء، ليتم والدي عمله في المسجد.

تيسرت الأوضاع المادية، تجلى حلم الجامعة واقعًا قريبًا. كان شيخي سعيدًا جدًا ومرتاحًا في عمله الجديد، رغم مشقة الطريق وضيق الوقت.

افتقدته كثيرًا، بل افتقدت نفسي وروحي به، معظم أوقاتي في السنوات الماضية، كنت قريبًا منه ليلاً ونهارًا حد الالتصاق.

اشتقت لتواجده الدائم معي، ساعات طويلة قضاها في عمله بعيدًا، أعادتني الوحدة إلى مضمارها، فلم تكن تطيب نفسي إلا بحضوره يحيطني الأمان.

أشفقت عليه من الجهد الكبير، الذي كان يبذله لإخفاء تعبه عني، فأظن أنه يمنّ عليّ.

داعب فكري سؤال قاس، إلى أن فقد لساني المقاومة يومًا فسألته:

-والدي! كيف يعقل وأنت شيخ معروف في منطقتك بدينك وورعك، أن تعمل لدى رب عمل مسيحي، من دين يخالف دينك؟.

قطب والدي حاجبيه في استنكار واضح وأجاب: بني، الدين معاملة وأخلاق، كلنا نعبد الله عز وجل، ونعترف به خالقًا، والإسلام هو أكثر من طبّق مبدأ التسامح، كل الأديان دعت إلى المحبة والخير والألفة، ونبذت الشر والعنف والتعصب، تعددت الأديان يا ولدي والشرائع واحدة، الأصل في الاختلاف، رحمة الله لعباده؛ فلا إكراه في الدين.

ارتشف رشفة من كأس الشاي بالقرفة، وأنا صامت كصنم ولكنه تابع حديثه: وما شيطان الحرب الأهلية، التي دامت خمسة عشر عامًا، من منتصف السبعينيات إلى بداية التسعينيات، إلا فتنة طائفية دينية، قتل فيها عشرات الآلاف، اختلقها استعمار خفي؛ لتتحول بيروت الجمال إلى ساحة صراع ودماء، فيعبث بها يد المجرمين لما يتناسب ومصالحهم الاقتصادية، الدين لله يا آدم، والله محبة وخير.

خجلت من نفسي عندما أدركت سخافة وسطحية السؤال، سؤال سيعنّفني عليه دم كل شهيد قضى في تلك المجزرة، فجيعة أطلق شرارتها شيطان، جعل من اختلاف الأديان والطوائف، ذريعة لهدر الأرواح.

وكما وعدني والدي الشيخ، انتسبت إلى الجامعة، اختياراتي كانت محدودة ما بين اللغة العربية والشريعة. أرشدني قدري إلى اللغة العربية، التي أحببتها منذ بدأت أقرأ الشعر والروايات القديمة.

فخامة قواعدها اللغوية، تدعوك إلى الإبداع والاسترسال. ثمانية وعشرون حرفًا، تقلبها كيفما تشاء لتنتج كل مرة شيئًا مختلفًا. البداية كانت صعبة لأتأقلم مع جديدي، وأنا الذي أكره الجديد دومًا.

احتجت سنة دراسية كاملة، لأساير المجتمع الكبير الذي يضم عددًا كبيرًا من الطلبة، من بيئات وجنسيات مختلفة. عالم واسع لم أعتده في البداية، ابتعدت لدرجة الانطوائية عن الطلاب، إلى أن سماني المتنمرون منهم "الأرنب".

تفوُّقي، وكفاءتي العالية، واجتهادي المستمرِّ. فرضتُ مع الوقت احترامي من الأساتذة، وطلب المساعدة من الطلاب والطالبات، الذين

أصبحوا فيما بعد أصدقاء وصديقات، لم أبخل على أحد، من احتاج إلى دعم دراسي ساعدته، واتخذت أحيانًا القرارات عوضًا عن بعضهم.
تلك المعونة التي قدمتها، كانت حافزًا كبيرًا لي للنجاح والاختلاط، وتبدلت صفتي من " الأرنب " إلى " العبقري آدم ".

رغم المجتمع الجديد والأصدقاء والصديقات، وانشغالي بالتحصيل العلمي والتفوق، لم يفتر إحساسي بالوحدة، وشوقي لوالدي والكلام معه، الذي أصبح نادرًا جدًا، بعد اختياري الفترة المسائية لمحاضراتي، لأوازن بين عملي في المسجد ودراستي الجامعية.

كلما افتقدت والدي عادت لي الكوابيس المزعجة، وضاقت بيّ الدنيا. ظلت كوابيس الباشا ترافقني رغم مرور ما يقارب الاثني عشرة عامًا، أتوق إلى الخلاص منها ولا أفلح.

تخرجت وأنا في السادسة والعشرين من عمري، لم أتأخَّر كثيرًا عن أقراني الذين تمتعوا بحياة طبيعية، بين أم حنون وأب عطوف، ودفء بيت مستقر.

بالواقع سبقت الكثيرين من أولاد الذوات المدللين.

السرور ملأ قلبي، خُلقتُ إنسانًا، لي كياني وكرامتي. مستقبل كبير ينتظرني كهذا كنت أشعر، وعدت نفسي أن أحمل والدي، وكل الأعباء على كتف من حديد، لأرد له معروفه، وأعوضه عما فعل من أجلي.

الأمنيات فراشات ملونة، حلقت حولي. ولادتي في هذا الكون نصيب ولكن نجاحي قرار، ملكت القرار. مخيّر أنا، لست فقط بمسيّر.

***

13.سلمى:

رنين هاتفي المحمول، أيقظني من أحلامي الوردية بمستقبل ناجح. دعاني صديقي الثري إلى العشاء، للاحتفال بتخرجنا بأحد مطاعم كازينو لبنان، وهو من أفخم الكازينوهات وأشهر المعالم، يقع على أجمل موقع في خليج جونية، ويتربع على تلة خلاّبة في منطقة المعاملتين.

حلمت بزيارته منذ سنين، فخلافًا لما هو متعارف عليه من التسمية، فقد اضطلع بدور فريد ونادر في آن واحد، حيث يشمل إلى جانب صالات الألعاب، حدائق استقبال، مطاعم، صالة سفراء للاستعراضات الكبرى، أما المسرح "تياترو لبنان"، فكان يضاهي مسرح الأوبرا في باريس من حيث الاتساع والتجهيزات. تاريخ كامل من الاتفاقيات والاقتصاد مرّ عليه، وهو ما زال شامخًا على تلك التلة كمنارة ساطعة.

المشكلة الأساسية بالنسبة لي، تمحورت حول اللباس الرسمي، لم أملك ربطة عنق وبدلة، لكنّي اشتريت واحدة من مدخراتي القليلة، لأحقق

رغبتي بزيارة مكان يعجز العزّ بتاجه أن يُقارن به، هناك حيث يُلبس ريش النعام، ويتغندر بتيه ودلال، فيتأبط الثراء ذراع السلطة، وتنحني الحياة للجمال، فتُهرَع العيون للتسابق إليه.

بدوت عريسًا وسيمًا، في بدلة قماشها فاخر، ذات لون كحلي، اشتريتها من شارع الحمراء بسعر غالٍ، كلفتني كل ما ملكت، مع ربطة زرقاء وقميص أبيض، انعكست كل تلك الألوان على عينيّ الخضراوين، فبدوت كسفير أجنبي أو أمير، حتى قدميّ كانتا تتراقصان فرحًا بحذاء من الجلد الأسود المريح.

وصلت في الموعد المحدد، التاسعة والنصف مساءً. مكان احتفال الأصدقاء، في مطعم مفتوح على خليج جونية، يدعى "لاتراس". وبالقرب منه بار للمشروبات يدعى" باكارا ".

تحققت أحد أحلامي، ودنوت من السجاد الأحمر الفاخر مختالًا. شعوري بالسعادة والزهو، اختفى عندما لمحتها، إنها هي بلا شك، سلمى، تتمايل بميوعة عند البار، مع رجل أكبر منها بثلاثين سنة على الأقل. تشرب بإسراف كسكيرة حمقاء، تعاقب كبدها بضرر فادح.

تتغير الملامح بعد أكثر من عقد من الزمن، لكن العيون والخال المقرف في منتصف خدها، الفستان الأحمر لون الخطيئة الأثير، أكبر دليل على أنها هي.

أصابها الرعب، لنقل الذهول عندما لمحتني، بحركة خاطفة لمست خدها وعنقها، كأنها تتذكر الصفعات ونصل السكين، وربما قطرات الدماء.

عدت آدم القديم بلحظة، استرجعت ذاكرتي، والدقائق التي غيّرت حياتي، أشرت إليها أن تتجه إلى منطقة الحمامات، لم أستطع أمام أصدقائي ادعاء معرفتها، وقد اتخذت الانحلال والبغاء مسلكًا، ذلك كان جليًا، وأنا شاب ملتزم وابن شيخ معروف.

استأذنت من صاحبها العجوز ولحقت بي. من الصعب عليّ أن أنكر أن شرًا ما استوطن شراييني، تمنيت أن أخنق سلمى ليختفي كل الماضي وأعيش فقط في حاضري وأماني، لمستقبلي القادم.

بادرتني بعناق ودموع، جعلت من راحة يدي التي كانت تنوي قتلها، تُربت بحنان على رأسها: "بحثت عنك طويلاً، أين اختفيت آدم؟".

تسمرت عيناها في الأرض، الكثير من الأسئلة تسقط من لسانها على أذني كسهام في خواء، ولكنني ألزمت أسئلتها الحد بقولي: سلمى! أنا مع أصدقاء هنا، سجلي رقمي على هاتفك المحمول، غدًا سنلتقي في مقهى من مقاهي الروشة.

وبقمَّة التعالي، والتحقير لها أكملتُ: أرجوكِ، ارتدي ما يستر جسدك عند لقائي، ولا تجعلي لمكياجك زئيرًا صارمًا، يصم العين قبل أن يعمي القلب.

هزّت رأسها موافقة، وعادت لصديقها تجر أذيال الخيبة، ثم ما لبثت أن غادرت مسرعة معه، كأنها تخفي عيوب عارها ومجونها، تحت رحمة وستر المسافة.

كلما ابتعدت قليلاً عني، اختفى آدم القديم وتلاشى الباشا، بهية، وسلمى، وعدت العبقري آدم ابن الشيخ عماد، الذي ينتظره مستقبل نظيف ناصع لا يشوبه عار قديم.

أتى موعد اللقاء، الساعة الحادية عشرة صباحًا من اليوم التالي. ارتديت ملابسي بلا اكتراث لأناقة أو ألوان. استغربت مرآتي، كادت تصرخ بي:

-ماذا دهاك يا آدم، ما كل هذا القبح الذي يعتلي تقاسيم وجهك؟ ليلة البارحة كنت وسيمًا كأمير، أتعويذة من شمطاء أم سحر شيطاني، أم كلاهما؟.

انطلقتُ مسرعًا لأنهي الحديث السخيف مع مرآة غبية، وجدت سلمى سبقتني إلى مقهى في الروشة، يطل على البحر، عادت طفلة رغم تجاوزها الثلاثين من عمرها.

أذعنت لوصيتي، جينز عريض، قميص بأكمام طويلة، صافٍ وجهها من الأصباغ كالماء النقي، شعرها مربوط كذيل فرس. فقط ذلك الخال الذي يثير اشمئزازي، لو اقتلعته بعملية تجميل وتخلصت منه، لأصبحت لوحة كاملة المعالم الجمالية بنظري، وجوده يذكرني بالخطيئة والشر.

مددت يدي للتحية، ولكنها لم ترض إلا العناق سبيلاً للسلام بيننا. مع فنجانين من الشاي ابتدأ الحديث: أينك؟ بحثتُ أكثر مما تتخيَّل، ولم أجدكَ، ماذا حدثَ معكَ؟.

_ "دمَّرتني مفاجأتان منك، إن تذكري ذاك الوقت، أختاه! هربت إلى الشارع، عانيت الجوع والتعب والبرد، ثم احتضنني رجل كبير بالسن،

رجل تقي ساعدني على إنقاذ ما بقي لي من كرامة، أنعش مستقبلي بكرمه، وبحرصه على تحصيلي العلمي، المهم، أخبريني عنكم، ما الذي أوصلك إلى قاع الهاوية النتن؟.

شظايا كلامي قتلتها ذُلًا، اعتراني شيء من الفرح والشماتة، ما لبثتا أن غادرتا ليحل محلهما، الشفقة والندم، رافقهما سماح ولين بعد ما قالت:
-أنت الناجي الوحيد من ظلام وظلم الخرابة يا آدم! كلنا، كل من عاش فيها وإن كان بعضنا أحياء، فنحن ميتون، فلا تكن بنا من الشامتين، وأشكر الله على نجاتك والنظافة التي تعيش بكنفها.

أجبتها وقد اختفت القساوة من صوتي: كنتِ رمزًا للجبروت والتسيب يا سلمى، فلا تدّعي المسكنة والضعف، مفاجأتان في عشر دقائق لمراهق مكسور هزمه الواقع، كثيرٌ كثير.
ضحكتُ ضحكة خافتة، فقاطعتني: "اسمع آدم، إن كان على ميلادك الحقيقي المزيف، فمنذ زمن طويل قبلها حاولت أن أخبرك، لأخفف

عليك مشاعر الاضطهاد من بهية، فكلما كان الظالم أقرب كان الوجع أكبر، ظننت أن غربة الدم بينكما قد تجعلك تتقبل أو تتجاهل ما ألمّ بك منها، أما إغوائي لكَ وشبقي، كما اعتقدت أنت في تلك الليلة المشؤومة؛ فما كانت إلا ردَّة فعل على تعذيب نظراتك المحتقرة، عند عودتي كل ليلة، زدتني ألمًا ومذلة كما تفعل الآن، لم تشعر بمُعاناتي، ليس بيدي ما كان وصار، حتّى حاضري الآن لا أملكُ التصرُّف به.

احتست رشفة من الشاي، ساعد حلقها الجاف بشوك المهانة على الاستمرار بالكلام: لم أجد رجلاً ورعًا تقيًا ينقذني مثلك، أردتك أن تجرب لعنة ما بعد السقوط، قبضة القاع القوية التي لن تفلتك إن زللت، لا فرق إن وقعت بإرادتك أو دفعك أحد وأجبرك أن تهوي، لا تحكم على الآخرين دون معرفة بظروفهم، ضع نفسك مكانهم أولًا.

هززت رأسي غير مقتنع، وأجبتها: صدقتِ أختاه، لستُ الخالق لمحاسبتك، لست مؤهلاً كبشري أن أطلق الأحكام عليك، هو الاستنكار والقرف من الوضع عامة، ليس إلّا.

ثم استطردتُ لأُغيِّر الموضوع: أخبريني عنهم كلهم. كنت أقصد بكلهم، والدي المزيف، لكنني لم أسمح للساني بأن يزل باسمه، اعتبرتها خيانة لوالدي الشيخ عماد.

ردَّت بإصرار: سأخبرك بالتفصيل، فلا تقاطعني، ولا تعقب بسخريتك التي تلدغني بسمها إلى أن أنتهي، حتى لا تجرحني أكثر، فأهرب منك كما هربت مني يومًا ما.

استعدت لردٍّ هجومي بضربات سديدة: الوالد تُوفِّي بعد أسبوع من مغادرتك، أنت أناني يا آدم، لم تأبه إلى أنك كنت سبب بقائه يتنفس في الفترة الأخيرة، رحلت ببساطة ولم تهتم، وبالطبع فرحت بهية بالتخلص من مسؤولية مقعد مريض.

أصابتني الضربة الأولى بأسى مريع، دمر مقاومتي بتلقي ما بعدها من ضربات.

بأشدّ إصرارًا، أكملت: بعد سنة من غيابكَ، علي، صدمته سيارة كسرت أضلاعه وهو يحاول بيع ما أعطته بهية، توفي بعد أيام، بصراحة حسدته، لأنه تخلص من الطغيان والجور، لم يحزن عليه غيري، لم نقم له عزاء، دفنوه ككلب شارد حتى لا تؤذيهم الرائحة، ولم يرف لبهية جفن. أما عمر، فقد قبضت عليه الشرطة منذ خمس سنين، وبحوزته كمية كبيرة من الممنوعات، حكم عليه بالسجن لفترة طويلة، أغلب الظن أنه حمل قضية كبيرة عن مروجين مهمين خارج البلد.

غبطةٌ اعترتني ببلية عمر، قد يكون مصدرها انتقامًا للقمة نميمة من الماضي، استقرت بين أضلاعي، خجلت من نفسي، وسألتها: ألم تحاولي مساعدته؟! وأنت كما رأيت لك من المعارف والأصدقاء أنواع شتّى.

ابتلعت من جديد جرعة الإهانة المخفية، وقالت: لا أحد يستطيع إخراجه مما هو فيه، وقد حاولت كثيرًا، الموضوع شائك جدًا، يتعلق

بتاجر مليونير يعيش بالولايات المتحدة الأمريكية لا يستطيع أحد الاقتراب من اسمه النظيف ظاهريًا، ينادونه، عارف!.

ارتعد جسدي، وهي تذكر اسم الأخ الأكبر لوالدي الشيخ عماد، الذي حماني وساعدني، أخوه هو من قضى على مستقبل عمر، سخرية القدر. حرّم الله ماله القذر على أخيه النقي، حين رفض اقراضه المال، فعلاً لكل أمر سلبي حكمة إلهية يكشفها الزمن.

لاحظت سلمى شرودي، فصمتت، فأشرت لها أن تكمل: أما بهية يا أخي العزيز، فقد غادرت منذ أكثر من سبع سنين، في مغامرة ليلية من مغامراتها، ولم تعد، وبعد انخراطي بنفس مجتمعها المشوه، سمعت بعض الهمز واللمز، بأنها كانت على علاقة مع أحد الكبار، معرفتها بخفاياه وأسراره، جعلته يُصفيها أو يبعدها كما قالوا، تناهى إلى سمعي مؤخرًا أنه حرقها بأسيد في حوض بقصره الضخم، هو نفس الأسيد الذي رمته على أصابع رجلي اليمنى سابقًا، حينما رفضت الانقياد لحضن ثري، دفع

الكثير ثمنًا لعذريتي، المرة الأولى تبعها مئات من الليالي الحمراء، كما ترى.

ثمّ خلعت حذاءها الرياضي، لأرى تشوهًا قديمًا واضحًا، قد تآكل الجلد، فضمرت الأصابع، حتى اختفى أصغرها. أخرس المنظر لساني السليط، تمنيت لو استطعت حمايتها، وكيف أحميها؟ وعجزي عن حماية نفسي كان أكبر.

استطردت سلمى: لستُ عاهرة بمشيئتي، ولا أمثل دور الضحية، لا أدعي العفاف والشرف، إنما هي الدنيا مراحل والبشر أصناف وطبقات، أنا رضيت بتصنيفي ومكانتي، ولو حاولت سأبقى من الطبقة السفلى بالمجتمع موسومة، بالعار والبغاء.

ثم حدقت بوجهي وكأنها تتوسل: إن افترضنا أنني وجدت طريق التوبة، وما أقتات به غير جسدي، في حال وافق أحد على توظيفي خادمة، أنا موافقة، بنات الهوى أمثالي يا آدم، مقيَّدات بأجسادهن إلى أن تشيخ

وتهرم؛ فهل تستطيع أنت أن تتكفل بقوتي وحمايتي، أجبني يا آدم؟ إن كان جوابكَ بالإيجاب، فلك الوعد بالتوبة النصوح، ملتزمة بيتي لا أخرج منه إلا على مقبرتي، أخبرني، هل تستطيع؟.

وددتُ لو أصاب الأرض تحت قدميّ زلزال، حولني إلى حجر ليبتلعني باطن الأرض فأتلاشى، أو ألا أسمع ولا أرى ولا أتكلم كصخرة الروشة في عرض البحر، رغبت لو وصلت إلى قمتها، فأصرخ صرخة عاجز، مبتور اليدين والقدمين، قدموا له دعوة كريمة للسباحة فألقوه في اليم.

تمالكت نفسي وأجبت: بصراحة يا أختاه، الآن لا أستطيع، لكنني سأعمل قريبًا عملاً مجزيًا لأنتشلك من القاع، لكِ كلمة شرف مني.

ضحكت ضحكة مجنونة، قائلة: نعم، شرف. وقفت معتذرة للمغادرة، اكتفت بالمصافحة مودعة. غادرت ولم يغادرني الألم وتأنيب الضمير، لم أخبرها لأنانيتي شيئًا واضحًا عني، ولا أين أقطن.

فقط رقم هاتفي الذي فكرت في تغييره، ونحن نشرب الشاي مرات عديدة لحجبه عنها، مع علمي الأكيد أنها لن تحاول مهاتفتي مرة أخرى. انتهى الأمر، انسحبتُ بهدوء، عادت سلمى إلى المكان المصنفة مجتمعيًا للتواجد به.

لست أنانيًا. وضعت نصب عيني هدفين، رد جميل الشيخ عماد الذي كبّل عنقي بإحسانه، وسلمى، وإخراجها من بؤرة بيع جسدها.

سأنقذها، سأحقق غاياتي؛ فأنا خُلقتُ إنسانًا. طلبت الفاتورة من النادل وغادرتُ مسرعًا.

***

14.الرحيل:

مع أن المسافة قريبة، إلا أن طريق العودة للبيت لم تكن سهلة. قدماي مشتا خطوة إلى الأمام وعشر إلى الخلف، سُجنت على خط واهٍ بين الحاضر والماضي. لم أستطع التزحزح كما لم أتمكن من رؤية معالم الطريق.

قررت العودة مشيًا، لم أستقل حافلة، مررت أمام زجاج أحد المحلات التجارية، بدوتُ أكثر شحوبًا، ونحولًا من أي وقت مضى. نفذت طاقتي فجلست على الرصيف برهة مسندًا ظهري إلى عامود الكهرباء القريب، كم من الوقت مضى وأنا مصاب بالذهول، لا أعلم قد غفوت، ربما، أو هو مجرد شرود وتعب أصابني.

داعب النوم جفوني، ليحفز عقلي على الهروب من ذاك الماضي التعس، استباحتني الكوابيس حتى ضاع صداها بين الواقع والخيال. فجأة وجدت نفسي مجددًا بالقرب من بيتنا الصغير، فتحت الباب بصعوبة، دخول المفتاح في ثقب الباب كان معادلة فيزيائية صعبة.

ولجت البيت بخطى بطيئة، صعقت لوجود والدي الشيخ. ما الذي أبقاه في البيت، والمفروض أنه وقت العمل؟ هل هو مريض؟ هل أقالوه؟ تساءلت بالخفاء مع نفسي، هلعًا وقلقًا. هز رأسه بحزم ردًا على سلامي، كان غارقًا في صمت غاضب، سألني:

-أين كنت يا آدم؟! هي المرة الأولى التي تقضي فيها ليلة خارج فراشك، ما الذي حدث؟!.

بقلبٍ هبط إلى مستوى ركبتي، احتججت على سؤاله الغريب: ولكنني خرجت فقط منذ ساعتين، حيث كنت في عملك يا والدي، وأنت بنفسك هاتفتني من هناك قبل مغادرتي بقليل.

ارتفعت حدة صوت والدي الشيخ: اليوم هو الأحد يا آدم، هو العطلة الرسمية لدار النشر، الحديث بيننا دار البارحة على الهاتف، الساعة الحادية عشر ظهرًا، أعلمتني خلالها أن لديك موعدًا هامًا وستخبرني عنه لاحقًا عند عودتي، يبدو أن موعدك هام إلى درجة أن تغيب ستًا وعشرين ساعة دون أن تطمئنني، وهاتفك المحمول مغلق أيضًا.

تغيّر مشهد كل شيء حولي، تحولت إلى مُتهم مجرم، ووالدي الحنون القاضي والجلاد، أصبح كبهية الصهباء. صوت الريح خارج البيت تطوع ببسالة، ليصبح عواء ذئاب وثعالب خبيثة.

وضعت يديّ على أذنيّ؛ لأنقذ مسمعي من التلوث المفاجئ، عاد صوتي ينبعث من حنجرتي ضعيفًا باردًا، آتٍ من تحت أكوام من الثلج، محاولًا فك لغز ما وبخني عليه والدي، لغز، أنا نفسي ما عرفت تفسيرًا له.

جمعت كل ما يمكن من رباطة جأشي، لأتفوه ببعض الجمل: أقسم لك يا والدي لا أعلم، ثم أخبرته عن سلمى، وماذا حدث لكل من كان في الخرابة، وعن استحقاري لنفسي لعدم استطاعتي مساعدتها.
إمعانًا في أنانيتي أخفيتُ عنه أنني أعرف هاتفها أو مكانها، فيطلب رؤيتها للمساعدة، لم أخبره أيضًا أنها تعمل في سوق الجواري والنخاسة.

لاذَ والدي بالصمت برهة، ثم نظر في عينيّ طويلاً. لحظات كالدهر مرت من دون تفكير، عيناه أخبرتاني أنه كشف حقيقة ما يجري، استوى واقفًا وابتسم بدفء، كما تبتسم أم عاد ابنها من ساحة المعركة حيًا، ثم قال:

-لنضع هذا الموضوع جانبًا الآن بل دعنا ننساه بالمطلق، لن أتركك فترات طويلة بعد اليوم، حصلت على إجازة أسبوعين من السيد أبي مريم، للتحضير لعيد الأضحى أولًا، ثم لحزم حاجياتنا لننتقل ونعيش في صيدا، تعبت يا بني من قطع المسافة كل يوم، ذهابًا وإيابًا، وأنت أنهيت دراستك الجامعية، وعدني أبو مريم بإيجاد عمل لك في نفس دار النشر، خلال الشهر المقبل، وهو فرح جدًا بتخرجك.

سنكون معًا كل الوقت، وسأهتم بصحتك. أنصتُ إليه وأنا أبتسم ابتسامة مكتومة، حفرتها تحت جلدي، حتى والدي لم يلاحظها:

-والدي، لا عليك، لا يتوجب أن تحيطني بحمايتك ورعايتك كل الوقت، فلم أعد طفلاً مراهقًا، يكفيك ما تعاني من مشقة لتحصيل رزقنا، يبدو أنني مصاب بأنفلونزا أو حمى عابرة، لكنني بخير.

اغرورقت عيناه بدموع حاول أن يمسحها سريعًا قبل أن ألاحظها: "من يتخذ الخير طريقًا لا بد أن يسلكه للنهاية، وأنا اتخذتك ولدًا منذ اليوم الأول للقائنا، عشنا معًا ما يقارب العشر سنين، تقاسمنا حتى مشاعرنا وأفكارنا، لن أكون عاجزًا عن تتمة المشوار، اذهب لتنام قليلاً فأنت بحاجة إلى الراحة".

تحت لحافي الأبيض ابتلعت ريقي بصعوبة، جسدي كان مرهقًا وجبيني يشتعل، أكثر ما أزعجني بمرضي وزاد الطين بلّة، إصابتي بتلعثم وتأتأة لجمت لساني. بذلت جهدًا كبيرًا لأتم جملة، أو أرد على سؤال والدي عن صحتي، صراع حاد دار بيني وبين تلك العضلة الصغيرة، لساني!. انتصرت عليه بعد ثلاثة أيام، جزمنا أنا ووالدي بأن الحمى هي سبب تلعثمي، عدت طبيعيًا لا شائب يشوب طلاقة كلامي.

أتى العيد.. وكعادة كل عام، أخذ والدي على عاتقه تنسيق وتحضير لوازم هذه المناسبة، إجازته الطويلة زادتها تفننًا. قدّم استقالته رسميًا من المسجد، لنتفرغ معا للعمل في صيدا.

كل شيء يدعو إلى البهجة، ملابس جديدة، حلويات، هدايا. كلها مفرحة، ماعدا الساطور الجديد، اشتراه والدي لذبح الأضحية. لستُ نباتيًا، أحبُّ اللحم والدجاج، إلا أن شراء سكينًا مخصصًا بالعيد لذبح حيوان، يصيبني بفرط هلع، مشفقًا على مصير كل قربان أتاه الدور ليُضحّي به.

أقسم مرة أنني رأيت دموعًا في عيني أحد الخراف قبل الذبح. لا أنكر ما أحلّ الله، ولا أستطيع كبح مشاعر الشفقة والرهبة. لاحظ والدي امتعاضي من السكين الجديد، فبادرني:

-من رحمة الخالق بنا أن جعل لنا أيامًا فاضلة، يغفر فيها ذنوب المسيء، فرصة موسمية ثمينة للتسامح وتنقية القلوب، نطهر خلالها الأرواح

والألسنة، نِعَمُ الله تستوجب الشكر، الأضحية صورة من صور الشكر لله، حيث يتقرب بها العبد لربه إحياء لسنة سيدنا إبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام – بالفداء والإيثار لمحبة الله والطاعة، على محبة النفس والولد.

تابع والدي كلام، وهو يخبئ السكين الجديدة عن ناظري في درج المطبخ:
-لا تنسَ يا بني أنّ الأضحية توسيع على الفقراء وإكرام، ولا يتوهم عبد من عباد الله أن لديه الحق بمعرفة وتفسير كل ما بالكون من دستور وقوانين، بعض التشريعات التي لا تقبلها عقولنا المتواضعة، من الأفضل أن تبقى في حيّز الغيبيات.

لم يقنعني الجواب كثيرًا، ظل منظر تلك المجزرة في أيام عيد الأضحى تورط عقلي في مسارات عديدة، جيش مغولي عاد من الزمن الغابر متعطشاً للدماء. ليس من السهل أن تفكر بعمق بكل شيء، كل فعل، كل منطوق، بالحاضر والماضي والمستقبل.

حتى أن تفكر بما يفكر غيرك، إرهاق جسدي ونفسي، شاشات مراقبة ورصد تُفتح دفعة واحدة في دماغك. وكرأي والدي الشيخ عندما كان يمازحني:

_ من يفكر كثيرًا، يَمتْ باكرًا، السطحية أحيانًا ومحدودية التفكير والتجاهل فيما لا يقدم ولا يؤخِّر، يطيل العمر ويعمر القلب بالسعادة. السعادة التي لم تخلق لي، فالتفكير يحرمني لذة النوم والراحة.

بدأ الاستعداد لحزم الحقائب للانتقال إلى بيت جديد وحياة جديدة، مجتمع غريب لا أعلم عنه شيئًا، أسوأ ما يقاربني في أمور حياتي هو الشيء الجديد. حزمت أمتعتي وصوت والدي يعلو مطالبًا بالحذر، ألا أنسى شيئًا، فبيتنا الصغير العابق حبًا ستأتي عائلة أخرى للسكن فيه خلال أيام قليلة، الأثاث لم نكن نملكه، فهو ملك للمسجد.

تركنا كل شيء، ذكرياتنا الجميلة مع شيخي وكم من الحنين لا يستهان به، تركت جزءًا مني، أمقت الرحيل والتنقل. لم نأخذ معنا سوى ملابسنا وحاجياتنا الخاصة، ومجموعة كتب والدي الضخمة.

انطلقنا إلى صيدا. البيت الجديد الذي أوصى به أبو مريم لنا، بيت أنيق، طابق أول من عمارة صغيرة لا تحوي الكثير من الشقق. أصبح لدي غرفة نوم خاصة ولوالدي أيضًا، الصالة مرتبة وكذلك المطبخ بتجهيزاته الكهربائية الحديثة.

بالنسبة لبيتنا القديم في بيروت، هو قصر سلطان. لا بد أن والدي صديق مقرب لأبي مريم، حتى يمنحه كل هذه العطايا بكرم طائي، ومن لا يحب الشيخ عماد؟

سمع والدي، لدهشتي تفكيري، فأجابني:

-آدم، بني! أنا وأبو مريم صديقان مقربان، خمس سنين من العشرة والصدق والمحبة، إنسان مخلص هو، لو جمعت كل ما عند عطاري الأرض لن تجد عشبة الوفاء والمحبة، كما في قلبه النقي الوفي.

لا أنكر جنوني، أصابتني الغيرة من أبي مريم، أريد الشيخ لي وحدي، أنا ولده الوحيد وصديقه ووالده إن أراد. ليس لي أحد بعد الله سواه، أستأثر به لنفسي، أنانيتي مباحة، فالمحبة أحيانًا لا تكتمل فصولها إلا بالأنانية، وأنا أحب والدي.

انتهينا من ترتيب متاعنا وتجهيز العشاء في وقت قليل؛ فالبيت نظيف مرتب وأمتعتنا محدودة ضئيلة، ما عدا الكتب التي قررنا تأجيل تنظيمها في المكتبة إلى اليوم التالي، لها قدسيتها عند والدي، ويجب معاملتها باحترام.

***

تتنكر خيباتنا أحيانًا في هيأة ابتسامة وفرح زائف، فما زالت الروح عالقة بالبيت القديم، الذي انتشلني من الشارع وحماني سقفه عشر سنوات وأكثر.

فاجأني والدي دائمًا بسماعه ما يدور بوجداني دونما كلام، هو الوحيد القادر على إطفاء فتيل الاشتعال بأوردتي:

-أشعر بحنينك يا ولدي، تبقى الروح معلقة بلحظات عشناها، جزء منا لا نستطيع التخلي عنه ورميه في سلة النسيان، احتفظ بروحك متنقلة دائمًا ودع رحلتك التي تقوم بها في داخلك، أهم من رحلتك الخارجية، وهكذا تستطيع اجتياز المسافات لتزور الأماكن التي أحببت دومًا، ولتقابل كل من أبعدهم القدر بالمسافة أو الموت.

اخترق حديثه باطن روحي معلنًا حقيقة مهمة اقتنع بها والدي طوال عمره، وآمن:

-الروح بني، سر من أسرار الكون، حتى فاقد البصر يستشعرها ببصيرته، اجعل روحك ملاذًا منفصلاً عن الألم، متحرر من البؤس ومن النزوات التافهة، لا تقيدها بجليد جسد فانٍ يرتكب المعاصي والذنوب، دعها محلقة تخالف قوانين الطبيعة، فيتحول الداني بعيدًا، والقاصي قريبًا،

تحكّم بقدرك، فأنت مخيّر بما ينتظرك قبل أن تكون مسيّرًا، أنا أثق بروحك الشفافة يا آدم ستقودك دومًا مهما ابتعدت، إلى ما فيه خيرك.

استيقظت صباح اليوم التالي، جهزت نفسي لاستلام عملي الجديد. خيبة أصابتني عندما طلب مني والدي الانتظار إلى الغد، ساورني الشك، استفسرت منه عن السبب:

-لن أفقد ثقة أبي مريم، لن تستلم عملك إلا بعد أن أخبره عنك كل شيء، وخاصة أنك لست ابني بالدم والنسب، الخداع حبله قصير، إن كذبت عليه سيخنقني، أقصر الطرق لما نريد، الصدق والصراحة، من الممكن ألا يوافق على عملك في دار النشر، إن عرف الحقيقة، وهذا حق له لا ننكره عليه، وبهذه الحالة نبحث عن عمل آخر لك، مؤهلك الجامعي، قوتك وسورك المتين، انتظرني مساءً، علّهُ خير.

صدق والدي، لا أستحق وأنا اللقيط مجهول النسب، صاحب شهادة الميلاد المزورة، لأب متوفٍ مختلق وأم زائفة في عداد الموتى. شهادة لا أستطيع التخلي عنها فأضيع، وأصبح بدون اسم، قد لا أستحقُّ فعلاً أن

أعمل مع من وضع ثقته بنا، فما جزاء الإحسان إلا الإحسان، ولن نبادل معروفه بخديعة حقيقة نسبي.

انتظرتُ، ومرّ الوقت ثقيلاً مُمِلاً، نشب أظفاره الشريرة الفضولية بحثًا في ماضيَّ المقيت. عاد شيخي مُقطِّب الحاجبيْن؛ فانهار أملي بيقظة الإنسانيّة، والتسامح في قلوب حتّى أنقى البشر، كما كان يصف والدي أبا مريم.

جثوتُ على رُكبتيَّ يائسًا، ضحكة عالية من والدي، رقصت لها الجدران فرحًا أسعدتني، سقط صوته عليّ كما تسقط قطرات الندى على الأغصان، والورود الندية.

-سترافقني غدًا، لم ينبس أبو مريم سوى ببضع جمل، بعد ما عرف الحقيقة كاملة:

_ لا نختار جلدنا أو مكان ولادتنا وأسماءنا، لكننا نختار ما سنصبح عليه، مصيرنا وأخلاقنا صنع أيدينا، يكفيني أنه ترعرع وكبر في كنفك، لا

يهم جيناته البيولوجية صديقي عماد، كن متأكدًا ما أخبرتني به، سرنا الصغير معًا، لن أحدث به حتى نفسي بعد هذه اللحظة، أنتظر غدًا آدم ولدك ليستلم عمله.

أصبحت ضحكتنا المشتركة أنا ووالدي مجلجلة في الأرجاء، الفرح غمرنا وجعل انتظار الغد أجمل.

***

15.الشرارة:

امتطيت سراج الليل بفرح نادر، قلما كنت أشعر بمثله، لأصحو مع خيوط الفجر الأولى. قدوتي، أمل لاح فجأة، كمن ينتظر استلامه لحق مشروع سُلب منه زمنًا طويلاً. ورقة يانصيب فازت بالجائزة الكبرى، توسلت لله أن تتم فرحتي دون عوائق أو مفاجآت.

وصلنا مبنى دار النشر، ياسمينتي التي لم أرها منذ سنين كبرت، وما زالت تتحرش رائحتها بأنفي بقوة، تسلقت بكل شموخ على الجدران الصلبة معاندة، وهي الرقيقة الضعيفة.

دخلت ووالدي المكتب الرئيس لأبي مريم، دون وساطة السكرتير، طرق شيخي الباب استئذانًا، خطونا إلى الداخل، نهض أبو مريم من خلف مكتبه مرّحبًا لكنه كان هزيلاً متعبًا، كأن دهرًا قد مرّ على جسده فهرم وشاخ، بادرنا بالتحية:

_ "مرحبًا بابن الشيخ عماد، الصديق الغالي، حماك الرب يا بني، ستستلم عملك اليوم، ولا مانع عندي من أن تطوره وتغير أساليبه كيفما ترى لصالح العمل، قدوتك نفسك، لا أريد منك طاعة مطلقة، أو إعجابًا تامًا بمن يعلمك، حتى لو كنت أنا، فلك بمجهودك وفكرك أن تقدر نفسك وتحترمها".

بدا عليّ جليًا الاستغراب، ابتسم وتابع:

_ طبعًا، لمن سوف يعلمك ويرشدك كل الاحترام، ولكن لك القرار، وما تراه صائبًا، ونجاحك متعلق بمدى إخلاصك ومحبتك لعملك.

ثم نظر بمحبة لوالدي:

_ أنا وصديقي عماد تجاوزنا المستحيل، وطورنا هذه المؤسسة إلى الحد الذي فاق الخمسين سنة، في خمس سنوات، لك أمنياتي بالتوفيق يا بني، وللعلم ابنتي هي رئيس مجلس الإدارة، سترشدك إلى مكتبك، وتسلمك الملفات الخاصة بعملك.

رفع سماعة الهاتف، واتصل برقم مقسم داخلي، دقائق معدودة وأتت؛ ارتعش جسدي، وزاد رجفانه كلما خطت مقتربة، خطوة بعد خطوة، كأنها جنية خير، اخترقت الحائط بشفافيتها، تمثلت لنا بشرًا سويًا.

ملاك تحرر من عبودية إطار الصورة، الموجودة برفقة والدها على طاولة المكتب، لتحلق بيننا دون أجنحة.

هي مريم. رغم كرهي، ولا أبالغ إن قلتُ: كرهًا للجنس الأنثوي عامة، وخاصة الزميلات في الجامعة، وابتعادي عنهن، انجذبت إليها صاغرًا مستغربًا.

لماذا هي بعينها؟ مع أن الأخريات لم يُحدثنّ في نفسي إلا نفورًا.

ومع أنّني معروف برزانتي، ضجت مشاعري، ستارًا سميكًا قد أزاله وقع تلك الخطوات عن مسام جلدي، فاستقبلت بنشوة نفحات ربيعها المزهر.

هل هو قانون الحب الذي لا أعلم عنه، أكثر مما أعلم عن لغة سكان كوكب المريخ؟ أم هو الشر المستطير، الذي أبعدني عن دهاء ومكر كل حواء حاولت الاقتراب مني؟

ذلك الشر الذي يولد من شرارة، تلك المرة الشرارة لم تولد نارًا بل نورًا ساطعًا، استثناء أضاء كل ما حولي، وطرد كل ما مرّ معي من أرواح تنافرت مع روحي، تلك الأشباح التي مرت وكأنها لم تكن.

تورطت بالتأمل فيها، فارعة الطول، معتدلة القوام، بيضاء البشرة كالمرمر، عيناها خضراوان تشبه عينيّ، شعرها الأسود الطويل هالة مشعة من الجمال، كلما مالت لامس خصرها بدلال وغنج، فإن ابتعد لثانية عنه هاج وشعر بوطأة الاشتياق مطالبًا له بالعودة.

ارتدت قميصًا زهريًا مع بنطال رمادي أنيق، امتزاج من الألوان البهية، ألوانها ألوان جميلة، سواء أكانت منفصلة أم مجتمعة.

صوت والدها أعاد لي بعضًا من رشدي، فوقفت احترامًا كأي رجل مؤدب:

_ اقتربي يا ابنتي، آدم، ابن الشيخ عماد.

ثمّ وجّه الحديث لي:

_ مريم، ابنتي الوحيدة، ورئيس مجلس إدارة دار النشر.

عرّفني كما أحبّ، ابن الشيخ عماد، إذن هو حافظ للسر كما وعد، لم يخبر حتى ابنته بالماضي الذي يقلقني.

مدت يدها للمصافحة، لم أعتد مصافحة النساء عامة، بل كنت أتحاشاه، وأحرمه على كفي اليمنى. تلامست خطوط كفينا باتحاد وإصرار، حتى انتقل عطرها إلى يدي التي أقسمت يومها ألا يصيبها ماء، فتختفي الرائحة العطرة. هو ليس انجذابًا روحيًا فقط بل معادلة كيميائية معقدة، فاقت الإدراك والوعي. هرمونات جسدي الدفاعية لم تستطع التحكم في هيجانها، فانهارت معترفة بالحب بكل ما فيّ من روح وجسد، وأتاني صوتها الناعم؛ ليزيد من انهياري، مما زاد الطين بلّة:

_ مرحبا بك معنا، أستاذ آدم، أتمنى أن يكون العمل معنا مريحًا ومناسبًا لك، سأرشدك إلى مكتبك، تفضل لو سمحت معي.

تهادت أمامي كغزال هادئ واثق، لا يهاب النظرات المفترسة. كان مكتبي جميلاً واسعًا، لم أحلم يومًا أن أكون صاحبه، رائحة القهوة الزكية

التي طلبتها لنا، لم تطغَ أبدًا على رائحة عطرها من على كفي. حاسة الشم، هي أكثر الحواس جاذبية في الحب، تسيطر على عاطفتك وتبقى عالقة في ذاكرة دماغك فترة طويلة.

ساعتان كاملتان من الشرح، لم أستوعب شيئًا مما قالته، فقط كنت مهتمًا بمغافلتها، لأضع يدي على أنفي وأستنشقها أكثر، تحولت من رأسها إلى أخمص قدميها، لقارورة عطر ثمين.

نظرت إليّ نظرة ساحرة، ومضت على وجهها ابتسامة العارف كأنها كشفت اللغز المستور، فأطرقت رأسي خجلاً، وقالت بخبث:
_ سأعرفك اليوم على المكان، وغدًا سأشرح لك مهامك، يبدو أنك لستَ مهيَّأً اليوم لاستيعاب الملفات.

ضحكت بصوت عالٍ، ضحكة سعيدة، وضحك قلبي معها فرحًا بسعادتها الماكرة. عرفتني على المكان ومن فيه، من موظفين وموظفات، لم

تخدش الكشرة لحظة وجهها الجميل، بل كانت مبتسمة دائمًا، كأن البسمة منحة خلقية ولدت معها، ابتسامة تنفذ إلى القلوب، فيندفع الدفء ليسري في أوردتك وروحك من خلالها ببساطة.

انتهى دوام العمل آسفًا، لم يكن لديّ رغبة بالمغادرة، ما واساني أنني سأتواجد في الجنة كل يوم. عدنا إلى البيت أنا ووالدي، وبعد تحضير العشاء، حققت معه كأنني ضابط متمرس متعطش للاعترافات، كل الأسئلة تدور حول مريم وأبي مريم.

عرفت الكثير عنهما، تملكني الشوق لمعرفة كل ما يقربني حتى من لحظات ماضيها. هي الابنة الوحيدة لأبي مريم، شاء الموت أن يختطف روح والدتها وهي تضعها، فتعايشت مع اليتم منذ أن تنفست، اعتادته منذ نعومة أظفارها، فضعف جسدها.

انزلقت تحت حوافر المرض أكثر من خمس سنوات، حتى اشتد عودها. حرمانها من رعاية أمها، حرمها عافيتها وصحتها، لم تومض فكرة الزواج من أخرى في نفس والدها، إلا بعد أن أصبحت واعية في طور المراهقة، لكثرة إلحاح الأهل والأصدقاء عليه.

تزوج من امرأة أظهرت الحنيّة والمحبة لمريم، وأضمرت في نفسها الشر والقسوة، التي لم تتضح للعيان إلا بعد ارتباطه بها، وزاد في الإخفاء كتمان مريم الأمر، حتى لا تتسبب في حزن جديد لوالدها، إلى أن عاد يومًا من سفر بعيد قبل موعده، ليجد ابنته المراهقة مربوطة بحبل إلى سريرها، وعلى وجهها عدة كدمات.

هجر أبو مريم زوجته الجديدة، ثم طلب التفريق من الكنيسة وحصل عليه.

لم يفكر بالزواج مرة ثانية أو الارتباط بأنثى، اتخذا مسارًا لمعيشتهما، أب وابنة، متوحدان إلى درجة الالتصاق.

كبرت مريم، درست في الجامعة الأمريكية ببيروت، فرع إدارة الأعمال، إلا أنها كانت تعشق اللغة العربية، حملتها رياح الشعر والأدب على جناح العشق والرغبة، إلى أن أصبحت لِخَطِه خبيرة متمرسة.

همست لوالدي راجيًا أن يكون النفي جوابًا:

_ مريم متزوجة؟.

رد برقة كمن يشفق عليّ، عالمًا بما أشعر:

_ لا يا ولدي، بعد تخرج مريم من الجامعة تسلل المرض بطيئًا إلى دم والدها، مرض خبيث يعالجه منذ سنين بالصبر والكيماوي، ويمر مؤخرًا بأسوأ مراحل المرض، كما ترى هي جميلة جدًا، كثيرون طلبوا ودها، وسعوا إلى رضاها، جوبه طلبهم بالرفض القطعي، وإن لامها لائم؛ قالت: من أفنى شبابه لتربيتي وهجر النساء، لن أضيّعه في شيبته من أجل رجل، غير أن لا قدرة لديّ على فراقه لحظة من حياتي.

بوجه متجهم، وصوت كاد أن يخفيه عبرة من الحزن، سألته:

_ لكنها دومًا مبتسمة، مرحة، اعتقدت أنها ولدت في جنة، تقيم فيها منذ ولادتها إلى الآن.

وببراءة مفتعلة، استفسرت:

_ كم تبلغ مريم من العمر؟.

التفت والدي اليّ ونظر باتجاهي نظرة ثاقبة، تحذرني بالتورط بما ليس لي مقدرة عليه، بما يفوق ظروفي ووضعي، أجاب باختصار:

_ آدم، بني! الطير يرقص مذبوحًا من الألم، هي إنسانة واعية مثقفة ومتدينة أيضًا، والرضى بحكم الله أساس السعادة، وعلى ما أظن تكبرك بست سنوات.

ثمّ أشار لي والدي بالصمت، متهربًا من أسئلتي التي هبطت عليه كَسَيْل لا يتوقَّف:

_ أنا متعب، لديّ عمل كثير في الغد، اذهب للنوم يا آدم.

***

خانني النوم ليلتها، غدر بي، لم يطل عليّ ولو لساعة واحدة، بقيت يقظًا أساهر أفكاري وهواجسي. كيف أنام؟ وعيون من وضع خطواته الأولى على درب العشق، يعزّ عليها النوم مهما استجدى منه دقائق.

تمنيته، عساني ألمح طيفها في المنام، تعزز النوم مبتعدًا، وتذكرت قول قيس بن الملوح:

(**وإني لأهوى النوم في غير حينهِ \\ لعلّ لقاءً في المنام يكونُ**).

ابتسمت، كنت عاشقاً.

في الأحلام نسجت معها حكاياتي، فهي وأنا عشنا في آفاق مختلفة تمامًا، جمعنا بعض اليتم والمرض في طفولتنا، لكن اختلاف الظروف المادية والطبقة الاجتماعية، الدين، الولادة التي سبقتني فيها بست سنوات إلى الحياة، والأهم أنني لا شيء.

يكفي أنني لا أعرف من هم أهلي حقًا، ليس لي أصول عائلية، أنا لا أحد، يلاحقني ماضٍ مهين مذل، رجوت المولى ألا تعلم عنه مريم شيئًا، ليت تلك الحقبة من الزمن تختفي إلى الأبد.

فجأة، شيطان مارد من الشر اجتاح كياني، تمنيت غير آسف أن يموت فناءً كل من على وجه البسيطة، على علم بالماضي، سلمى، والد مريم، الشيخ عماد.. اختفى المس الشيطاني تدريجيًا، وأنا أعنف نفسي لتفكيري بوالدي بتلك الطريقة الحقيرة، فمن سعى لحياتي جاهدًا، كيف أتمنى موته؟.

تلاشى شري، وأنا ألمح نظرة العطف والرأفة في عينيّ والدي الشيخ، واقفًا على باب غرفتي، متسائلاً بصوت هادئ:

_لماذا لم تنم للآن يا بني؟ هيا لنتوضأ ونصلي الفجر جماعة.

صوته الملائكي في ترتيل آيات الذكر الحكيم؛ جعلني أتصالح مع واقعي، فأنا بخير، الناجي الوحيد من الخرابة، كما قالت لي سلمى يومًا.

عاهدت نفسي أن تكون مريم حلمًا إلى ما بعد الحياة ربما، فمن منا لم يحمل في قلبه حلمًا مؤجلاً، أصبح مع الزمن، باهتًا لاستحالة تحقيقه؟

***

ما الذي يحملك على اتقان عملك إلى حد الكمال؟. تحدي الذات، إرضاء من حولك، أم ابتسامة مريم، وتحليقها كفراشة قربي؟.

ذلك الاتقان دعمني لأصبح من المقربين خلال ثلاث سنوات من أبي مريم ومريم، وكل العاملين والعاملات في دار النشر.

ارتقيت في عملي من منصب إلى منصب، أصبحت أهم رجل في المكان بعد أبي مريم. أظن هو الحب، يدفعك دومًا إلى الارتقاء، الحب الذي أخفيته ثلاث سنوات عنها وعن كل من حولي.

هل نجحت في إخفاء مشاعري المتدفقة نحوها؟ لست أدري. حدس مبهم أخبرني، أنها تبادلني شيئًا ما، اعجابًا، اهتمامًا، وربما حبًا مخفيًا مؤجلاً كعشقي المدفون.

مرات عديدة رفعت نظري عن الملفات؛ لأجد عينيها الخضراوين تحدقان بي، بنور متلألئ أضاء وجهها بلمعان غريب، كثيرًا ما داعبت جديلتها السوداء أسفل عنقي وكتفي، وهي منحنية لتسلمني كوبًا من القهوة أو ملفًا.

خصّتني بمشاركتها قهوتها وطعامها كل يوم، منحتني موجات من موافقات ومشاعر وأراء مماثلة كلما تناقشنا. سايرتني دائمًا فيما أصبو إليه، حتى لو لم تكن مقتنعة تمامًا.

ثقتها العمياء بي فتحت باب أمل في قلبي، تخطيت بردة أفعالها الإيجابية كثيرًا من الحواجز، التي كنت أخافها في بداية معرفتي بها، لكن، السبيل إلى الاقتراب مغلق وبشدة، بعثرة مرض والدها المزمن، الذي وصل إلى حافة الخطر.

بقي حلمي مؤجلاً لكنه لم يبهت، أصبح زاهيًا أكثر، مبهجًا كديوانها الجديد، الذي اخترت له غلافًا باللون الذي أحبه عليها، اللون الزهري. هو إصدارها الأول، أشرفت على كل ما يتعلق به من تنقيح وتنسيق وإخراج، انتقيت صورة الغلاف وصورتها الشخصية. تركت لي تلك المهمّة بثقة، أنني الأفضل، وذاك ما أوصلني إلى الإبداع.

جاء اليوم الموعود، يوم إشهارها للديوان الجديد. حفل كبير مميز نظمته بنفسي، الكثير من المدعوين من كبار الأدباء والشعراء والإعلاميين، في قاعة فخمة من قاعات الأدب والثقافة في صيدا.

أصرت مريم أن يكون مقعدي بالصف الأول، مع والدي ووالدها وكبار المدعوين، وقفت مريم خلف المنصة، وغمام الفرح والثقة تعتري كلماتها، كل من حولها حلّق مع حروفها.

متأكد أنا، أنها خصتني بقصيدة أو أكثر، فضحتها عيناها وصوتها المفعم بالشجن. تلك القصيدة النثرية ما زالت تصدح بمسمعي للآن:

(كلما لمحوني قادمة، تهامسوا

نحسدها، مبتسمة سعيدة

بعيدة عن مغبةِ العشقِ

ومشاعرها بليدة

ما علموا عن أغنيتي

تجوب ضجر الشوارع

تتمايل كالسكارى

تحني نوتاتها ظهر القصيدة

بعيدًا عن تُرّهاتِ

في عقولهم أكيدة

سأبقى أنا

كما أنا

ملتزمةً صمتي

وأسلِّم نبضي إلى شرفة روح معذبة

وأرتدي كل يوم ابتسامة جديدة

سأطبع على لساني ختم كاذبة

وأهيم على طرقات التيه

وأقبل الاتهامات العديدة

يصيح في عيني الأرق

وتتعثر أنفاسي بين الضلوع

لكنني

سأحمل الجرح على محمل الأمل

وأراوغ بضفيرتي على كتفك

أحبك

وسأبقى مع لوعة التأويل عنيدة).

***

اغرورقت مقلتاي بالدموع، وهي تلقي تلك القصيدة، هي ليست بعيدة عن الحب، هي عاشقة تخفي مشاعرها منذ زمن طويل، هي تحبني لا شك.

ضجت القاعة بالتصفيق، بعد استلامها التكريم من وزير الثقافة، وقف الجميع اطراءً لتحيتها، ابتعدت مريم عن المنصة لتنحني للجموع لرد التحية. سعادتها القصوى في تلك اللحظة، منحت إجازة لعقلانيتها وحكمتها.

وفي غفلة من الواقع، اتجهت نحوي، عانقتني للحظات بشدة، هي كل ما كنت آمله من الدنيا وما فيها. اختفى من حولنا كل البشر، هالة من اللاوعي أبعدتنا عن الناس، لم نسمع ولم نرَ.

بضع لحظات، أفقنا بعدها على نظرات مدهوشة متسائلة من والدها ووالدي والجميع، فابتعد الجسدان الملتصقان مجبران لا مخيران، علا وجهها ووجهي حمرة من خجل، واعتذار عن تصرفنا الطائش. لم أكن

بحاجة لأكثر من قصيدة وعناق، لأتأكد من حبها. بدأ نهر جارف من الاستفسارات والاسئلة، التي ترافقت بالإشاعات من حولنا. لكنها لم تدم طويلاً.

***

16.المـوت:

رُبطت ألسنتنا برسن الطريق، لم نتفوه لا أنا ولا والدي بحرف، توهمت أن السيارة التي أقلّتنا للبيت تسير ببطء شديد، رغبت بالوصول والاختباء تحت لحافي، من والدي ومن التحقيق القاسي المنتظر.

توقفت السيارة، قفزت منها بسرعة، لحقني والدي. عند عتبة باب منزلنا حُلّ رباط لسان والدي، وهمس:

_ هل أنت مدرك لما حصل الليلة في الحفل، هل تعي عواقب مثل تلك التصرفات؟.

خفق قلبي بشدة، فأنا أدرك تمامًا المقصود. دخولنا لصالة الجلوس البعيدة عن باب البيت، جعله يتكلم بصوت أعلى شابه الصراخ، ممزوجًا بالتأنيب والعتب:

_ منذ متى يا آدم وحياتك بعيدة عني تشوبها الأسرار؟ كيف طاوعك قلبك إخفاء الحقيقة؟ وكم من الوقت تطاولت بخداعي واستطاب لك سذاجتي؟ هل كنت تهزأ بي؟.

صمتُّ لبرهة، عقلي تجاوز جمجمتي، جال تائهًا في أرجاء الغرفة، تهيأ لي جسدي مسجىّ على الأريكة دون حياة، رأيته دون أي مرآة عاكسة. تأثرت جدًا من سماع كل تلك الاتهامات:

_ الوضع كان مفاجئًا صادمًا لي مثلك يا والدي، لا أنكر أنني أحمل مشاعر الحب لها منذ اللحظة الأولى، اعتقدت أن هذا الوباء أصابني أنا فقط من طرف واحد، رضيت بنصيبي وواقعي، ذهلت مثلك يا والدي اليوم بإعلانها مبادلتي الحب على الملأ بصراحة.

أكملت وصوتي اختنق في حلقي:

_ لم أستهزئ، لم أتطاول، ولم أُخفِ إلا مشاعر أكننتها في نفسي، لا نُحاسب عما في نفوسنا وما يختلج قلوبنا، أو ما يرتاد أحلامنا، إنما نحاسب على القول والعمل.

احمر وجه والدي غضبًا، حدّق بعينيّ، واستمر بحديثه المؤنِّب: ألا تدرك! لو أنها ما تيقنت من حبك لما بادلتك إياه علنًا، هو خطؤك، لم تلجم قلبك وتقتل أحلامك قبل أن تولد، ذنبك الذي لا يغتفر، أنك شجعتها على الخطوة الأولى دون وعي منك، ألا ترى ما وضعتنا به من إحراج مع من مدّ يد النجاة إلينا قبل ثماني سنوات؟ أننكر المعروف ونضيّع الاحسان؟ كيف نسيت الفروق الطبقية بينكما، ناهيك عن العمر والدين؟.

ظلال سوداء من عدم التصديق ارتسمت على وجهي، مستغربًا ما أصغيت له من كلام والدي، تمالكت نفسي وأجبت:

_ الفروق الطبقية! ألم تكن أنت من علمتني أن لا فرق لعربي على أعجمي إلا بالتقوى؟ ولا يملك أحد من البشر الحق أبدًا بالتبخيس بقدرنا ما دمنا خلقًا من مخلوقات الله المكرمة، ألسنا ننتمي إلى سائر

البشرية ونترفع عن الفروق العمرية التافهة؟ النبي محمد تزوج خديجة التي تكبره بخمسة عشر عامًا، فما بالك بست سنين تافهة لا قيمة لها حسابيًا؟ ألم تكن ماريا القبطية على دين عيسى أحد زوجات الرسول؟ وهي من أنجبت له ثالث أبنائه من الذكور، أين التسامح الديني ومحاضراتك على أن الدين لله والحب للجميع؟!.

اندفاعي وإسهابي في الحديث قادني إلى التمادي على من رباني، فأكملت:

_ نحن أمة كاذبة ومنافقة، نحب في الخفاء ونكره بالعلن، يؤسفني يا والدي أنك ربيتني على مبادئ وشرائع، لا تؤمن ولا تعمل بها، تقول: يا شيخنا ما لا تفعل فأنت أكبر المنافقين.

لم أنتبه إلى صوتي العالي وصراخي المهين، إلا بعد أن سجل التاريخ على وجهي صفعة قوية من والدي، كانت الصفعة الأولى والأخيرة على خدي.

_ تجاوزت حدودك يا آدم، المعضلة ليست بمرماي كما تعتقد، إنما بمرمى الكنيسة وتزمتها، بالإضافة إلى والد مريم ومريم نفسها، من الواجب

عليك أن تعلم كل شيء عنك، لا ينبغي أن يشوب علاقتك بها الزيف والكذب، كل شيء يا آدم، ماضيك ومن أنت، الباشا، حتى أحلامك وكوابيسك التي تجعلك تفقد النطق أيامًا، هو حق لها يجب أن تطلعها عليه.

طأطأ رأسه حزينًا، نظر مطولًا إلى أرضية الغرفة، وتابع: عزيزٌ عليّ أن تتلقى من كفي تلك الصفعة، وصمة وجع في قلبي صراخك في وجهي، وهدمك لصرح الاحترام بيننا. من يدخل الحب قلبه فعلاً ترقّ تصرفاته، ولا يجرح من حوله، وخاصة أقرب الأقربين كما كنت أظن نفسي، جرحك اليوم لن يبرأ من روحي بسهولة، فالأقرب جرحه أصعب.

لم يُمهل اعتذاري وقتًا ليركع تحت قدمه، قال آمرًا:

-غدًا اعتبره إجازة من عملك يا آدم، حتى نجد مخرجًا، اذهب لغرفتك لو سمحت، أريد البقاء وحدي.

اتجهت إلى غرفتي منكس الرأس، بالواقع تجاوزت كل الخطوط الحمراء، فكنتُ سكينًا حادة في قلب والدي الحنون. هل هو حماس عناق ذاك المساء وشغفه، أم الدفاع عن الحب الوحيد الذي طرق بابي وتمكن من أوردتي؟.

حدثت نفسي تلك الليلة، سيسامحني، سأركع تحت قدميه طويلاً مترقبًا عفوه عني. طيبته واسعة، وكثيرًا ما شملت مخطئين، فالأحرى أن تشملني أنا ولده ليغفر إثمي في حقه.

لكن!. هل بمقدوري إخبار مريم عني بكل شيء يومًا ما؟ ذاك مستحيل، عاد لي المسّ الشيطاني، لو مات والدي ووالدها وسلمى سأرجع نقيًا من الماضي، لا يدرك عني أحد شيئًا.

استسلمت إلى غفوة طويلة، أجبرني الإرهاق على مسايرتها، تأرجح ذهني بأفكار شريرة، كيف سأقتلهم ، الثلاثة معًا؟.

تتمتع عقولنا، ولا وعينا بحيز إجرامي، يرتع فيه الكثير من أساليب القتل الغريبة، شر مقيم يُغذِّيه خوفنا وإحباطنا، وشح ذات اليد من الحلول، تستيقظ الروح عارمة بالفساد والأذى ويتحول القديس إلى إبليس.

ليلتها، كنت أستاذًا لإبليس. نال مني التعب، استيقظت على جسد متعب ومزاج متكدر لا يعلم ماذا يريد. خرجت للصالة لأجد والدي مغادرًا دون رفقتي، تركني أعاني تأنيب الضمير لفقدي السيطرة، شاركه في تعذيبي وعقابي، الألم القوي في رأسي مع وهن بالساقين.

عاقبني وكنت أستحق، لن أختلق لنفسي عذرًا لأقنعها أنها على صواب، فبعدما بلغ والدي من العمر عتيًا واحتاج قبضة يدي لأرد معروفه الكبير، أعطيته ظهري. كنت وقحًا حقيرًا، أردت ما ناسب مصلحتي ورغبتي فقط.

مرت الدقائق ثقيلة، وعقرب الثواني يهددني في كل تكة بالويل والثبور. صوت نغمة رسالة على تلفوني المحمول جعلت روحي تجثو على ركبتيها، تنتظر الحلم المحلّق، رسالة من مريم، تتضمن جملة واحدة:

-أحبك، لماذا لم تأت إلى العمل؟.

آن للربيع أن يزهر بقلبي، بعدما ملأه الزمن يبابًا. أرسلت لها ردًا: "يقين روحي وخفقان قلبي، أنتِ، ما عرف العمر معنى النبض إلا عندما لمحتك، اعذريني، أنا متعب قليلاً"، وبأسلوبها المباشر الجريء بعثت لي بعد مرور نصف ساعة رسالة أخرى:

-هل نلتقي اليوم؟.

-أجبتها: أنا معك على لقاء دومًا.

التقينا بعد ساعتين في أحد مقاهي صيدا القديمة، البعيدة عن عيون المتطفلين، تلك التي تعجّ بالتراث القديم وصوت كبار المطربين، مثل أم كلثوم وعبد الحليم وفريد الأطرش، شخصيات كان لها رونق وأثر، في

حقبة من الأيام الجميلة التي فقدت نكهتها بعد الزحف التكنولوجي والانترنت. طلبنا القهوة، صديقة العشاق. صافحتها مسجلاً على روزنامة كفي تاريخ ذاك اللقاء الفاصل، وخواطري الثلاثية الأبعاد.

سألتني: عن أول إشارة حب ومنذ متى؟، وأجبت: منذ لحظة اللقاء الأول، ما زلت مأخوذًا بمذاق حلاوته، حالة انخطاف لا تتكرر بالعمر سوى مرة واحدة، شيء نقي ينجو بك مما ألحقه الدهر، فارحمي روحًا تاقت لعهد منك.

بصوتها، الناي الحنون، أجابت: "اخترقتُ بحبك هدنتي مع المشاعر، وسأعتنقك كما اعتنق المسيح المحبة والسلام، اخترتك ملكًا على كل مدني، أفقًا واضحًا لمحيطاتي، يقيني إن أتعبتني الحسرة، صهيل حب يضج بأوردتي، أنا واثقة به وبك.

الشمس متوهجة والسماء زرقاء صافية، الوقت يمرّ بلهفة المسرع إلى الفرح.

أفقنا من اعترافاتنا على آخر وقت الغروب. خيّم على روحينا قلق مفاجئ، لا نعرف سببه، قد يكون أزعجنا عدم اتصال والدي أو والدها بنا، للاطمئنان على الأقل.

استدركت قائلة: اتصل والدي بالعم عماد البارحة بعد الحفل مباشرة، وطلب منه أن يرافقه إلى **جُبيل** ، للقاء مهم مع تاجر كبير، الغريب منحه السائق إجازة وهو لا يقود منذ سنين، بصره الضعيف أجبره على التخلي عن المقود، في شبابه كان من مهووسي السباقات السريعة، أنا قلقة، الشمس غربت، والعدو اللدود للعيون التي تعاني من ضعف النظر، الليل وعتمته على الطرقات الجبلية.

ثمّ تأففت محتجة: هل كان يحتاج اثنان وثمانون كيلو مترًا، ساعة كاملة من القيادة حتى ينفرد بالعم عماد؟.

حاولت تهدئتها: لا تقلقي حبيبتي، أغلب الظن أن الوقت سرقهم على جناح النميمة علينا، أنا وأنت.

ضحكت ضحكة كاذبة، سقط قلبي في فخ عميق من القلق، وسألت نفسي: هل تشاجرا بسببنا؟.

لتشتيت اضطرابها سألتها: هل تلقيتِ مثلي التحقيقات والأسئلة؟.

_ لا، أبدًا، لم يسألني والدي شيئًا، ولم يرفع نظره إلى وجهي حتى، جملة واحدة؛ فقط كأنه يدلي بتصريح رسمي، مبارك مريم الديوان، تصبحين على خير.

كانت مريم متأكدة أن إجازة السائق ما هي إلا حجة واهية، ليبقى مع والدي لوحده، لمناقشة الحقيقة الجديدة التي بزغت أمامهما كضوء النهار، علّهما يجدان مخرجًا لما اعتقداه أزمة.

بعد أن أصبحت الساعة الثامنة مساءً اقترحت عليها أن نلزم البيت، لعل خبرًا ما يطمئن قلقنا الذي تفاقم، بعد محاولة كل منا الاتصال بوالده، الرد كان واضحًا من المجيب الآلي، الرقم المطلوب خارج التغطية!

لم أملك طوال طريق عودتي للبيت، سوى الدعاء والإيمان بإجابة الخالق لدعائي، فلن يدع تلك الأسطورة عن نبع الإله "إيل" في جبيل، يغرقهم في لجّة من الشجار والخلاف من أجلنا.

لم أكد أصل حتى رن الهاتف الأرضي رنينًا متواصلاً مزعجًا، منذرًا بالشؤم. رفعتُ السماعة بحذر، السلك الطويل تحوّل لأفعى تلدغ.
خبر كالصاعقة، هو أقسى ما تلقيت.. تلك الجبال المدرجة العملاقة في **جبيل**، ظمئت فما وجدت إلا روح ودماء ذاك النقيين، والدي ووالد مريم.
حادث سير، راحا ضحيته بكل بساطة، سببها نظر أبي مريم الذي كان قاصرًا عن تفادي شاحنة لسائق أرعن، ظهر على الطريق مسرعًا بشكل مفاجئ.
أسلما الروح إلى بارئها في دقائق، بعد أن انقلبت المركبة. سيارة الإسعاف التي وصلت بعد ساعة كاملة، لم تجد ناجين من الحادث المريع.

***

مغادرة الدنيا فجأة، أخطر حدث مستقبلي منذ القدم على الأحياء. ما زالت تلك المشاعر ترافقني، رغم مرور عشر سنوات على فراق الغالي، موته يشع بالذاكرة حزنًا كجمرة موجعة، محال أن تنطفئ أو يبرأ الجرح يومًا.

وكما ورق الخريف الجاف تتلقاه الأرض بإهمال، كضيف مزعج، ثم تدوسه الأقدام فيصبح سرابًا. هكذا تحول كل ما حولي لورق شجر هش، لا معنى له ولا أهمية، نسيت مريم ووالدها المتوفى، حتى أنني لم أقدم لها واجب العزاء، ففاقد الشيء لا يعطيه، وأنا فقدت بفقدي لوالدي كل معاني الإنسانية، كالجماد أصبحت أو أقل.

الخبر السيء ينتشر كالريح العاصفة، كل أصدقاء والدي حضروا من بيروت.

استلمنا جثمانه صباح اليوم التالي، لنواريه الثرى بعد صلاة الظهر.

وصدق من قال: يُسقط الموت كل أشيائك، حتى اسمك، ينادونك الجثمان، الجثة، الميت، تتنازل عن حقوقك في كتبك الأثيرة وملابسك، يتخلصون منها كالنفايات، وإن كنت محظوظًا قد يوزعونها صدقة على

الفقراء، خصوصياتك تصبح ملكًا لغيرك، جلدك، أظفارك، حتى عورتك، يقلبونك كيفما شاء من حولك بنية الغسل والكفن.

لم أسمح لأحد الاقتراب من والدي، أسبغت الماء عليه بروية ولطف كأنه حي.

قلبته بحنان على شقه الأيمن ثم الأيسر، قبلت يده وقدمه تباعًا كلما فاض الماء على جسده، عطرته بالكافور، مع أن رائحته منذ عرفته لم تتخلَ عن مكانتها بين العطور من المسك والعنبر.

أتوني بثلاث قطع بيضاء سترته من رأسه إلى قدميه، أبقيت فقط وجهه الوضّاء نورًا، العامر بالإيمان الذي أنقذ حياتي ومستقبلي في الماضي.

ارتدى حزني رداء الهدوء والتعقل، لم يفضحه إلا شلالات الدموع التي أصابت الكفن الأبيض فبللته. طبّقت عمليًا كل ما كان والدي رحمه الله يخبرني به، عن غسل الميت وتكفينه.

لا أبالغ إن قلت: إنني سمعت صوته مرارًا، وتكرارًا في أذني يرشدني بما أفعل بجسده الذي فارق الروح. حانت اللحظة الحتمية بعد الصلاة عليه، جُهز اللحد، أنزلته أيضًا لوحدي بإصرار مني إلى مثواه الأخير.

لم أشعر بثقله، فأثار حملي له وكأنه بخف الريشة دهشة واستغراب من حولي. وضعته على شقه الأيمن، رفضت الخروج من القبر، تأملته باكيًا بصمت لدقائق، إلى أن أجبروني على المغادرة حتى لا يتعذب الميت بدموعي، كما قالوا.

ألقوا عليه التراب، رفعوا القبر عن مستوى الأرض شبرًا واحدًا، هو ما بقي له حظًا مما فوق البسيطة. رشوا التراب بالماء، وضعوا على الشاهد اسمه، دعوا له، وتركوه لمصيره وحيدًا.

اختفت رائحته تحت جوف الأرض، أطفأ بريق عينيه التراب اللعين. جسده الطاهر، أصبح مباحًا لساكني التراب من الدود، وجبة تدوم طويلاً. أيقنت أنه الفراق الأبدي، والموت نداء صوت أخرس، يصم الآذان، للاستيقاظ من الحياة إلى الموت. لحظتها فقط خرجت من حزني الهادئ المتعقل، وصرخت إلى أن سمع صراخي من في الأرض ومن بالسماء من الكائنات، ثم أغمي عليّ.

العزاء ثلاثة أيام، ما حضرت منها سوى اليوم الأخير، منعتني حالتي الصحية والنفسية، والأصدقاء قاموا بالواجب وأكثر.
بعد انتهاء تلك المراسم التقليدية، التي لا تفيد الميت ولا تغنيه عن حساب أو سؤال، بدأ الشيطان اللعين يحفر الأخاديد المضللة في عقلي.
ماذا لو كان كل ما أخبرونا به عن الحياة الآخرة، مجرد كلام وهلوسات، خيال قصص خرافية، نتناولها جيلاً بعد جيل؟.

ماذا لو كانت نهايتنا، قبرًا مظلمًا وجسدًا عاجزًا عن الدفاع عن نفسه، ضد أضعف مخلوقات الله، وهل الدود أجّل مكانة من البشر حتى سُمح له باقتياتنا على مهل؟، وما دام قدرنا المحتم الموت فلماذا نولد؟.

أشباح، ظلال أفكار مرعبة، لم يوقفها عن التحليق حولي سوى طيف روح والدي النوراني وصوته:
-احذر يا ولدي، للكون حكمة إلهية تعجز عقولنا البشرية عن فهمها، الله عطوف رؤوف بعباده أكثر من والدة بمولودها الرضيع، فلا تسأل

عن الأمور الغيبية كثيرًا فتكفر، ولك فقط ما أماط ربك اللثام عنه بالقرآن الكريم؛ فهو الأعلم باستيعاب عقلك الذي خلق. ذاك الطيف جعلني أعود عن ردتي سريعًا مستغفرًا.

***

قررت بعد ثلاثة أسابيع، حلق شعر رأسي، لعل أفكاري المعتمة المظلمة تجد منفذًا فتغادر كهف دماغي، منزلقة على جلد لامع دون حائل. فقدت كثيرًا من وسامتي كما فقدت اتزاني، كلما استيقظت من غفلتي، وجدت رسائل ومكالمات من مريم لم يكن لدي استعداد للرد عليها.

كانت مثلي، مكلومة بالحزن وحيدة. مهما اختلفت الأديان، فطقوس الموت واحدة. كنيستهم أيضًا أقامت الصلاة عليه بعد غسله، ألبسوه أفضل ثيابه ووضعوه في تابوت، ثم غطّوه بالتراب، ليخفوا آثاره عن حواس أحبته سينسونه كما كل الذين سبقوه بالتدريج. يبقى الموت قاسيًا، عصيًا فهمه، ميقاتًا لا مهرب منه.

تجاهلت الرسائل العديدة من مريم والمكالمات متعمدًا، قُرع باب بيتي بعد شهرين تقريبًا من الحادثة، لأرى مريم متشحة بالسواد، غمامة من الشحوب والتعب احتلت تقاسيم وجهها.

بعض اللون عاد إلى خديها بعد ما رأتني، صدمها رأسي الأصلع ومظهري الجديد، تغاضت عن الأمر، قالت:

-أشكر الرب أنك بخير، حاولت جاهدة الاتصال بك، مُقدرةٌ أنا لظروفك التي تماثلني حالة ووضعًا من كل النواحي، يا آدم! يجب أن نخرج مما نحن فيه، دار النشر في وضع ليس بهين، غرامات جزائية فُرضت علينا لتأخر بعض العقود، كما زاد الإهمال والتسيب والسرقة منذ وفاة والدينا معًا.

تجهم وجهها بحزن عميق: لكأن محبتهما وصداقتهما جعلت حتى تخليهما عن روحيهما في هذه الدنيا، مشروطًا بمغادرتهما معًا، لا بد أن نحافظ على تعبهما كل تلك السنين، ألا توافقني؟.

تتكلم مريم كأننا زوجان فعلاً أو شركاء عمل على الأقل، نعم، عقد والدي ووالدها اتفاقية لعينة مع ملك الموت ليرحلا معًا، فهل شملت الاتفاقية شراكة أو زواجًا بيني وبين مريم؟

أخفيت استهزائي وأجبت بثقة: نعم، الحق ما قلتِ مريم، بالغد بعد زيارة قبر والدي سأعود إلى الدوام رسميًا، ليصبح الوضع أفضل مما كان عليه وهذا وعد.

أظنها لم تكن تهتم للوعد، بقدر ما كانت تهتم بأنني لم أرفق اسمها بلقب حبيبتي. ودّعتني بابتسامة حزينة على أمل اللقاء غدًا.

***

ما أوحش صمت شواهد القبور، زيارتي اليومية لها تعدت الساعتين من الوقت، أحدث والدي بكل ما جرى، أبكي حينًا، أضحك حينًا، وأعتذر أحيانًا.

أدرك أنه يسمعني جيدًا، لم يرد ولم يمنحني بركاته ولو بإشارة، ما زال غاضبًا مني ربما لأمنية تمناها شيطاني، بموته وصديقه وسلمى مرات عديدة.

أو ربما لأنه وضع وزرًا على كاهلي، وزر نتيجة حوار حاد دار بينهما عنا أنا ومريم، مما أدى إلى فقدان والدها السيطرة على المقود، فحدث ما حدث. ما جرى بينهما، سرٌّ غيبي، لن نكتشفه أو ندركه يومًا.

***

17.الزواج:

عدتُ إلى عملي في دار النشر وعاد للأيام وقعها المعهود، لكن جرحي لم يبرأ.
فإصابة طلقة نار الفراق في قلبك، يزداد ألمًا وعمقًا بمرور الوقت. مرّ عام كامل أنا ومريم يدًا بيد، سعينا لتحسين وضع دار النشر حتى أصبحت في المصاف الأول، يُشار لها بالبنان تفوقًا.

تكررت اللقاءات بيني وبين مريم، لم يعكر صفوها إلا بعض الهمز واللمز ممن حولنا، البارعون في لوك أعراض الناس والتندر بقصصهم، وتزييف الحقائق وبهرجتها بالكذب، وفرضيات الافتراء، غير الشائعات، حطب الألسنة الهائجة التي لا لجام لها، محور نقاشات للعقول التافهة المريضة.
ذاك الداء المقيت، الذي زادت سلبيته بازدياد تطور التكنولوجيا، وبكثرة منصات التواصل الاجتماعي.

حملات شرسة تعرضت لها مريم، بسبب اللقاءات المستمرة بيننا والحب الواضح للعيان، العاصي عن الكتمان. فَبْرَكات أوصلتها في كثير من الأحيان، إلى أشد حالات الإحباط والتوتر.

إحدى شخوص تلك الحملات الفاشية، لا أبالغ إن قلت أكبر وأبرز زعمائها "نهلة"، صبية تقاربني سنًا، سمراء، طويلة، عيناها سوداوان، حادة النظرات، جارتي في نفس الطابق في الجهة المقابلة، والأهم كانت زميلتي في العمل أيضًا، المسؤولة عن الأرشيف.

تلاقي بابها مواجهًا لبابي خلق نوعًا من الألفة البريئة، في بداية الأمر بيننا، سؤال عن الصحة، طبق طعام نتبادله، اهتمام بأمور العمارة والعمل المشترك بيننا، كل هذا من باب الجيرة والزمالة ليس إلا.

تطور الأمر فجأة، بعد مرور أشهر على وفاة والدي، تحول إلى متابعة وزيادة اهتمام، من طرفها فقط وصل إلى درجة الإزعاج، التلصص على

خصوصياتي، أجبرني على الابتعاد والنفور وأحيانًا إلى عدم رد السلام، خاصة بعد تفاقم الكلام الجارح والاشاعات المفترضة، بعد كل زيارة لمريم أو توصيلة إلى بيتي.

ابتعادي عن نهلة زاد من قوة أحصنة لسانها، كأنها أنثى صُدمت بمن تحب، استغربت كثيرًا، تلك المعتوهة وتصرفاتها. تعمدت الإهمال، فإن رغبت في دفن شائعة فقط تجاهلها، فتصبح في طي النسيان والماضي.

مريم لم تكن مثلي، لم تتمالك نفسها ولم تتبع نهجي، إلى أن جاء يوم افتعلت به شجارًا واتهامًا بالتقصير مع نهلة، أوفتها حقوقها الوظيفية ثم طردتها من العمل.

بعد أن انتفت صفة الزمالة معها قانونًا وشرعًا، بقي مشكلة الجيرة. كانت مشكلة محرجة لي حيث أن نهلة بعد ان طُردت من العمل، أصبحت تترقب زيارة مريم لبيتي، فتفتح بابها قاصدة، لتلتقي العيون الخضراء

والسوداء في نظرة تحدٍ، تنتهي بإغلاق نهلة للباب بشدة، فتهشم مسامع كل القاطنين في العمارة.

وتدخل مريم مشتعلة غاضبة، تُتَمتم بعبارات مبهمة، وأحاول تهدئتها مازحًا:

-انتهى أمرها، ألم يشف غليلك طردها من دار النشر؟.

ثم أقترب منها مداعبًا: اعترفي، بأنك تغارين، لإعجابها بي.

كان غضبها يزداد بعد مزاحي، لا أستطيع معه إلا الإنصات لردها:

-لا يُعقل ما تقوله يا آدم، فهل تُتهم يمامة بالتعدي والغيرة، من براعة صوت غراب بريء بالنعيق؟ لا أقبل أبدًا بتعليقك هذا وإن كان من باب المزاح والدعابة.

بكل ثقة أكملت بعد أن تحررت من معطفها الدافئ: طبعًا لا أغار، لكن كرامتي تأبى أن أكون أنا وأي أنثى أخرى بنفس العين، تراني وتراها، أرفض أن نجلس بذات المكان أو نفس الميزان، مهما تباينت الكفتان في الوزن، وإن كانت، نهلة، دونما شك من ذوات الريشة وزنًا.

***

كنت أتركها حتى تهدأ قليلاً، ثم تطلب مني أن أسمعها شيئًا من الموسيقى لـ "**بابلو كاسالس**"، العازف الاسباني الرائع مع كمانه، أو التشيلّلو الخاص به. ما أجمله وهو يعزف لمتتاليات الموسيقي الألماني "باخ"، كان القادر الوحيد، على إعادة مريم إلى رشدها وطبيعتها المسالمة الحنونة.

الموسيقى هي الشيء الوحيد، الذي بإمكانه تحويل وحش مفترس إلى كناري، يعبر سحرها روحك، فتختزل عاطفتك في نوتة واحدة تهزم كل اللغات، بل توحدهم منتصرة بخطاب ملائكي، من سكون وصوت يغسل ذهنك من رواسبه، فتُنوّم مغناطيسيًا وتدلو بدلوك، وبكل ما يجول في نفسك.

_لنتزوج!. صرخت بها مريم بصوت عالٍ، وهي منتشية، لتكمل سيمفونية نظمها القدر منذ وقعت عيناي عليها، وابتدأت التلحين منذ ما يقارب السنة.

أعترف، لم يكن اللحن نشازًا متجاوزًا، بل على العكس، حافظتُ على طهارته وعفويته وشفافيته.

لم أخدش حياء ساعات اللقاء الطويلة، إلا بعناق عابر أو قبلة. سُلّمي الموسيقي المتردد رغم انفرادنا، لم يتجاوز النغم أبدًا، مع حضور الموافقة والانسجام من اللحن، معي ولي. دون رقيب كنا أو حسيب من البشر، سوى خيال والدي الذي يرافقني وصوته:

-ما لا يراه الناس، يبصره الله". قاتلت ببسالة شهواتي، لأحافظ عليها وعلى نفسي.

***

هكذا كانت مريم جريئة، صريحة، وتطلق سهم رغباتها مباشرة على ما تريد، فتجيد الإصابة وإن كان وسط دهشة المفاجأة والاستغراب. وبعد صراحة الطلب، بدأت المعاناة. كل ما سمعته وناقشت به، واقتنعت

بمبادئه، من التسامح الديني ذهب أدراج الريح. على أرض الواقع الأمور والنتائج تختلف.

لم يشفع لنا الحب بإقناع أهلها، وكل أصدقائها ومعارفها من الطائفة المسيحية بمباركة علاقتنا، إلى أن وصل الأمر إلى حد التهديد بالقتل من بعض المتعصبين، مما دفعنا إلى اللجوء إلى الكنيسة طلبًا للحماية، وبالتحديد إلى "**الأب ميلاد**".

"**الأب ميلاد** " صديق قديم لأبي مريم، رحمه الله. رجل دين له ثقله، وكلمة مسموعة بينه، فقط إحدى صديقاتها المقربات وابن عمها، المغرور المتبجح، الذي لم تتوافق روحي وروحه منذ لحظة اللقاء الأولى " الدكتور أمجد "، هما من انحازا لنا لا علينا.

رافقتُ مريم لمقابلة "الأب ميلاد"، قبل الزواج الذي قررنا عقده رغم كل المصاعب، في منتصف الشهر الأول من السنة التي تلت الطلب.

" الأب ميلاد "، إنسان بكل معاني الكلمة. بادرني بتحية الإسلام كأنه على ديني، ثم تناقشنا بهدوء:

-ولدي، الكنيسة لا تمنع زواج المسيحي بغير المسيحي، لكنها تضع نوعًا من الشروط، لكي تضمن محافظة الشريك المسيحي على إيمانه، وحقه في ممارسة التعاليم المسيحية، وتخّيرك الكنيسة يا آدم، بأن تصبح مسيحيًا، أو تبقى على ديانتك المسلمة".

ارتعدت أوصالي، متذكرًا كل آيات الردة والعقاب الشديد في القرآن، آيات أحفظها عن ظهر قلب. لاح لي طيف والدي الشيخ عماد، وفي عينيه غضب وتساؤل، ليذكرني بوجوب الاعتراف، بحضرة الأب ومريم بكل الماضي الذي يصيبني مجرد التفكير به بالغثيان.

لاحظ "الأب ميلاد" شرودي، والرجفة التي ظهرت جليًا على أوصالي، فقال: آدم ولدي، هو خيار فقط، لك الحق فيه كيفما ترغب، سيكون لك

اتخاذ العهد لنا بتربية الأولاد تربية مسيحية، ولا تجبر الكنيسة الطرف غير المسيحي على المعمودية.

صوت مريم جاء ككبسولة من دواء مهدئ للأعصاب: وهل نستطيع الزواج بهذه الشروط يا أبتِ؟.

نبرة من التنبيه والتحذير عادت إلى صوته، فأكمل: يجب أن تكونوا على دراية يا ابنتي، بمشاكل الزواج المختلط، لا أنكر أهمية الحب للحياة الزوجية، وربما يكون الحب أقوى من الدين أحيانًا، فهو شعور نبيل، لكن يجب أن تفكري مليًا قبل الإقدام على هذه الخطوة، خاصة بعد أن حذّر عدد من رجال الدين الكاثوليك منذ سنتين الإيطاليات من الزواج بالمسلمين، وقد ورد التحذير إن تذكري يا بنتي مريم، في وثيقتين تم نشرهما في روما، مما زاد من صعوبة ومحاذير الزواج ما بين مسلم ومسيحي.

ثم التفت إليّ معتذرًا: سامحني ولدي، أنت أيضًا أمعن التفكير في الحديث النبوي، (**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئتُ به**)، وبناءً عليه فالحب نوع من الهوى.

ثم وجّه دفة الحديث لي ولمريم معًا: المشكلة الحقيقة ستطرح نفسها بعد سنوات من الزواج، والمشاكل الحياتية اليومية، فلا بد أن تسألوا أنفسكم مطولًا وخاصة أنت آدم، هل تستطيع أن تتنازل عن معتقدك من أجل الآخر لتلتقي به في محطة وفاق؟.

وقد تتفاقم المشكلة بقدوم الأطفال، فالمجتمع اللبناني كأي مجتمع شرقي، سيبقى الطفل فيه في ملاحقة دائمة وسؤال متواصل، هل تتبع دين أمك أم دين أبيك؟.

الاقناع بالمنطق كان محورًا أساسيًا لنقاش "**الأب ميلاد**". اقتنعت بالجزئية الخاصة عن الأطفال وتشتتهم بشدة، لكنه لا يدرك، منذ كنت في الخامسة

عشرة من عمري، اتخذت قرارًا بعدم إنجاب الأطفال، لذلك العائق الأساسي المباشر لحبنا غير موجود.

قررت أن أخبر مريم لاحقًا عن الموضوع. آخر ما ودعنا به الأب ميلاد هو المباركة: فَكِرا مليًا، باركك‍ما الرب.

***

غادرنا في صمت محير ما بين المنطق الواقعي، والجدل الخيالي، بين الحب والدين. قطع الصمت صوت مريم الواثق: أنت الرجل الوحيد الذي هتف له قلبي، الحب سيجمعنا.

_ نعم، أدرك ذلك حبيبتي، خاصة العقبة الأساسية غير موجودة، فلا أرغب أن أكون أبًا لطفل في يوم من الأيام، ويكفيني أنتِ حبيبة وزوجة، أم وابنة.

أجابت بحماس متهور: أنا موافقة، المهم أن نكون معًا.

ترددت لحظة، استجمعت شجاعتي وأكملت: مريم، هناك حقيقة مهمة يجب أن أعترف لك بها، الشيخ عماد ليس والدي فعليًا، هو من رباني.

قاطعت كلامي بقبلة طويلة، زادت الشفاه والجسد جوعًا، وضحكت قائلة: أعلم عن كل شيء.

ازداد خفقان قلبي؛ فتابعت: سألت والدي عن اختلاف اسم العائلة بينك وبين العم عماد، منذ بداية عملك معنا، أخبرني أن عائلتك الحقيقة، قضت نحبها خلال الحرب الأهلية، في حادث تفجير ببيروت، وعمرك لا يتجاوز تسع سنين، العم عماد أخذ على عاتقه تربيتك والعناية بك، وخاصة أن الله لم يرزقه بطفل أو زوجة، تلك القشور يا آدم لا تهمني، تهمني أنت فقط.

***

ما دام يهمها أنا فقط، فلماذا أرجم نفسي بكشف ما ستره الله والزمن عليّ. تراجعت فوراً عن كشف الخفايا السوداء في حياتي، فهي لن تضر ولن تنفع، ولن تغير من واقع الحال.

الحياة فيض من أحداث الماضي، تصبح وهمًا وخيالًا بعد حين. الحقيقة الراسخة، فقط الموت، ومن يعلم بقصتي رحل، لم يبق إلا سلمى، سأعالج موضوعها قريبًا بكل حكمة، وقد أجعلها تهاجر، هذا ما راودني حينها.

اكتفيت اعترافًا، بما نطقت به مريم على لسان والدها المتوفى. لله درك، أبا مريم، اخترعت كذبة كبيرة لتحفظ وعدك لوالدي. (**الاعتراف يمحو الاقتراف**) هذا المثل الإنجليزي المعروف، لم يُطلق جُزافًا.

أردت الاعتراف، لكن مريم أبت أن تنصت إلا إلى قلبها، وقصة والدها الملفقة.

أنا إذن حِلٌّ من خطيئتي المفترضة، لا تصبح الحقيقة خطيئة في حال لم يلحظها أو يكتشفها أحد. لن أكشف ستر الله عني.

***

الحقيقة الوحيدة التي حُسمت، أننا تزوجنا كما اتفقنا في15\1\2008،حفل عشاء بسيط أنيق، موسيقى هادئة، فستان جميل

ارتدته مريم، بل ارتداها بشغف باللونين الأبيض والذهبي، يشبه صفاء ما ينبض بين أضلعها، زاد من بهاء طلتها شعرها الأسود، الذي تركته منسدلًا بحرية، كقصيدة منثورة القوافي أو غجرية تائهة، عزز من جمال عينيها وبريق السعادة والفرح.

عدد المدعوين محدود جدًا، لم يتجاوز الثلاثين شخصًا، كلهم لطفاء للأمانة وكنت أحبهم، ما عدا "الدكتور أمجد" ابن عم مريم، ونظراته المتفحصة كذئب جائع لمعلومة أو خبر عن فريسة.

وأيضًا نهلة، التي اتخذت مريم من العفو والسماح ذريعة لدعوتها، وإني لأظن أنها رغبة الأنثى الدفينة للتشفي وزيادة وهج الانتصار. دموع غريبة لمعت في عيني نهلة، دموع الكمد والحزن تارة، وبعض من القهر والتأنيب أخرى، كأنها مخدوعة بحبيب غدر.

أشحت ببصري عنها، تجاهلتها بالمطلق عندما حان وقت التعبير بالجسد لِزامًا، عوضًا عن اللسان.

دعتني مريم بشجاعة، ولم تنتظر دعوتي، إلى رقصة رومانسية هادئة لنتوّج بها ليلة العمر. يقال إن أصل الرقص الشرقي فرعوني، طقس من طقوس العبادة، هذا ما نقش على جدران المعابد القديمة، حيث كانت الراقصة ترفع سرتها إلى الأعلى، كي يبارك الإله خصبها الأنثوي، السرّة نقطة بدء الحياة والاتصال بالكون.

أما عن بدء حياتي الجديدة، فكانت أصابع قدميّ العشرة، ترسمها بألوان زاهية، وهي تتحرك بتوافق وانسجام مع قدمي مريم الصغيرتين، تتسلق الأرض فتبلغ القمة في كل خطوة راقصة.

لم يزحزحني عن سعادتي، إلا لحظات مسروقة من الواقع، هيئت لي في زاوية معتمة، شبح بهية والباشا يتراقصان بحركات شيطانية، برداء أسود قاتم وضحكات ماجنة رخيصة. والدي الشيخ عماد كان في زاوية أخرى، عابسًا، يعتري نظراته اللوم وترافقه سلمى يائسة خائبة.

***

انتهت مراسم العرس وبدأت رحلة شهر العسل، كما جرت العادة على تسميتها، ربما لأن لها مذاقًا خاصًا، كونها أول رحلة تجمع بين عاشقين علنًا، ولما بداخلها من أوقات ووعود جميلة، حلوة بطعم العسل.

كانت المرة الأولى التي أغادر بها لبنان، لكن مع إصرار مريم، ورغم الطقس البارد، قصدنا إسطنبول، أكبر ميناء ومدينة في جمهورية تركيا، أبهرني جمالها وأدهشتني معالمها. تقع على جزيرة ثلاثية، واقعة بين قارتي آسيا وأوروبا، حيث تطل على البوسفور والقرن الذهبي وبحر مرمرة.
لم تسعفنا عشرة أيام لزيارة كل معالمها الأثرية الجميلة، لكن اكتفينا بالمسجد الأزرق، مضيق البوسفور، البازار الكبير وجزيرة الأميرات، أما لبورصا البيضاء، فالجمال ينحني ويشيع في الأوصال الدفء، رغم ثلجها المتراكم.

الرهبة والعظمة والتاريخ، يتجسد في متحف "آيا صوفيا "، تحوّل من كاتدرائية إلى مسجد على يد محمد الفاتح، صرح عظيم يُزاوج بين الدين الإسلامي والدين المسيحي.

تحتضن فيه الزخارف الإسلامية التي صنعت في العهد العثماني، أيقونة يسوع المسيح – عليه السلام – دون عنصرية أو تعصب، مثال حي أن العبادة واحدة والرب واحد. الفكر النيّر على مر العصور.

تمر الأوقات المرحة والساعات السعيدة، لحظات قليلة. لم يجد العلماء تفسيرًا وافيًا لكيفية تعامل الدماغ مع الزمن. هاجر الحزن إلى كوكب آخر، عشرة أيام من الفرح لم يشبها وسواس ولا ماضٍ، لرغبت طوعًا أن أبقى إلى أبد الآبدين في هذه المجرة، التي لا تمنحي سوى السعادة وراحة البال.

لكن هيهات. العودة إلى الوطن فرض واجب لا بدّ منه. في الطائرة المتوجهة إلى بيروت، سألتني مريم، وقبل أن تحط الرحال: ستبقى تحبني؟.

بين الأرض والفضاء الشاسع، ومن خلال غيومه البيضاء التي تعلّقت في السماء خشية الوقوع، فيصيبها المطر بالتعري من ترحالها في الفضاء، أجبت:

_ وخلاف واختلاف الحب حبيبتي، إما أن يكون حقيقًا فيصقل على مر الزمن ويزيد لمعانًا، أو مزيفًا كلما ربتّ الوقت على يده اخشوشن وخبا.

لا أظن أن إجابتي المعلقة كالغيوم، شفت غليل مريم. عشقها المتوهج، رغبتها في الحب والتعبير عنه، كانا بحاجة إلى غزارة هطول، لم أملكه حينها، جاهلاً السبب. لكنها صمتت مجبرة، بعد أن هبطت الطائرة في مطار رفيق الحريري.

أنهينا إجراءات مغادرة المطار، انتظرنا خارج الصالة سائق مريم الخاص، أقلنا إلى منزل مريم في صيدا، على هامش اتفاقنا مسبقًا، بأن يكون مكان إقامتنا وحياتنا معًا. ساد الوجوم طوال الطريق إلى صيدا، في حضرة سكون الليل.

بحثت عن صارية أتعلق بها من اللون الأسود للأرصفة المتشائمة، فسألتها إن كانت بخير، وأجابت بإيماءة من رأسها وابتسامة. سألتني أمرًا أذهلني، بل كان طلبًا مغلفًا بأمر أذعنت له:

-لا تحلق شعرك منذ اليوم لو سمحت، أريدك أن تعود كما لمحتك عينيّ أول مرة. هززت رأسي مؤكدًا موافقتي على الطلب.

عند أول خطوة خطوتها داخل منزلنا "عش الزوجية"، قررت أن تكون حياتنا مميزة، لم يسبقنا أحد إلى غبطتها، أردت لمريم منتهى السعادة، وسعيت لذلك.

***

18.نهاية البداية:

ما أسرع الزمن، تطوينا الأيام طيًا عجيبًا، تمضي بنا على جناح الاستعجال، فلا نستيقظ من ذهول نسياننا إلا بعد حين. يلدغنا عقرب الوقت، فيخدر عقولنا بالمشاغل والتوهان في دائرة مكررة يومية، فتمضي الساعات ثوانٍ، والسنين أشهرًا، أيامنا مغيبة تمامًا.

مرت سنة كاملة على زواجي، نسيت فيها وعودي لنفسي بإنقاذ سلمى من مستنقع الوحل، وعهدًا لها اتخذته منذ عدة سنين بالمساعدة. قررت ألّا أؤجل عمل ما تذكرته اليوم إلى الغد.

منحت السائق إجازة ذلك اليوم، اتجهت إلى بيروت بسرعة تسابقها أفكاري وتساؤلاتي، أين سلمى الآن يا ترى؟ لم تحاول الاتصال بي أبدًا، بعد اللقاء منذ سنوات على مقهى الروشة.

لم أغيّر رقمي رغم ما سوّلت نفسي به مرات، نسيتها فنسيتني، من يعاملك بالمثل لا حرج عليه ولا عتب. حاولت الاتصال برقمها المحفوظ في ذاكرة هاتفي المحمول الجديد، فقد حظي بمعية غيره من الأرقام، بالانتقال من جهاز قديم إلى آخر حديث، لكنه كان مفصولًا. سعيت جاهدًا للبحث عبر منصات التواصل الاجتماعي، وجدت لها صورة وموقعًا غير مفعّل، منذ زمن ليس بقصير.

لم يكن أمامي سوى التنقيب في العنوان غير الدقيق الذي أذكره، شقة صغيرة في شارع الحمراء، فهي كانت تقطن هناك كما أخبرتني. أجهل تفاصيل وجهتي، طال بحثي في الشارع، شمل المحلات التجارية، بحثت عن إبرة في كوم قش فعلاً.

لم تسعفني حتى صورتها الملتقطة من أحد مواقع الإنترنت، كاد الأمل أن يفقد كل بصيص، حتى أتت امرأة في منتصف العمر تبخترت بكعب عالٍ وملابس فاضحة مستهترة، طلبت من البائع علبة تبغ من نوع فاخر، وبعض الأشياء الأخرى من المستلزمات الشخصية، في ذات اللحظة كان

إلحاحي على تنشيط ذاكرة البائع مستمرًا، بعرضي للصورة على مرأى منها.

نظرت المرأة للصورة بلا مبالاة، وقالت: أنا أعرفها وأعرف أين تسكن، لكن ادفع لي أولًا ثمن المشتريات.

حاسبت البائع مرغمًا دون أن أنظر إليها. لوقاحتها، أخذت الباقي ووضعته في محفظتها، كأنه مالها المشروع.

سوط من نظرات البائع اللاسعة المحتقرة، جَلَدَ ظهري، وأنا أرافقها مشيًا لبضع أمتار. توقفت فجأة عند عمارة، أشارت إلى شقة أرضية تلفها العتمة، اقتربت بدناءة ورخص واضحين مني قائلة:

_ هنا كانت تسكن سلمى، أنا موجودة حاليًا إن أردت، لا تخجل مني، أستطيع القيام بمهام سلمى وربما أكثر، لن نختلف على الثمن، طاوعني، خدماتي العديدة ستسعدك.

قهقهت بصوت عالٍ، حتى اهتز الإسفلت تحت قدميّ منذرًا بزلزال مريع. التحرش الواضح، عرض الخدمات المقرف، جعلني أشعر

بالغثيان، فابتعدت عنها: ابتعدي يا هذه، أنا لا أبحث عن متعة رخيصة، سلمى أختي، وأريدها في أمر هام.

بميوعة وملل واضحين من استشرافي، كما أعتقد أنها ظنّت بي، أجابت:

-أوف منك، اسمع شمشون الجبار، إن كنت زبونًا، أنا أقطن في الطابق الثالث، وإن كنت تريد سلمى بأمر خاص، لرغبة فيها بالذات، فلا أظن الموتى قادرين على إشباع رغباتك.

ثم تحركت خطوة إلى الأمام، باتجاه المصعد، وأكملت:

_ أما إن كنت من أقاربها فعلاً، فقد قضت منذ ما يقارب السنة، ولم تنجُ من مرض نقص المناعة، لا تسألني عن مكان دفنها، فالأمر لا يهمني، الدولة توّلت ذلك فهي الموكلة بنفاياتها كما تعلم.

رمت ما بجعبتها، في عقر وجهي، توجهت إلى بيتها، متأملة صعودي خلفها:

_ لن أنتظرك كثيرًا، لا وقت لديّ.

***

ماتت سلمى، هي لم تمت منذ سنة، العاهرة كاذبة، لا تعلم شيئًا، ماتت منذ سنوات طويلة خلف قناع المسافة بيننا، ماتت منذ أن استهزأت بها وترفعت عن مد يد العون .

أختي ماتت، خانها جهازها المناعي، فنشرت الوباء طواعية بين المريدين، خانها كما خانني جهاز الإنسانية في بشريتي. كنت جبانًا، ابتعدت خوفًا على ما تبقى من سمعتي ومستقبلي، ابتعدت وأنا القادر على المساعدة، أنا نذل. فأين مني عفو ربي وغفرانها؟ تمنيت لهم الموت، أبي، سلمى ووالد مريم.

فعاقبني الله لتحقيق أمنية في لحظة غضب شيطانية، دونما إدراك. في حجب الله تلبية بعض الدعوات عنك، خير لا تعلمه.

***

مضى وقت طويل وأنا أمشي، خطوات الأخبار السيئة، مفاجئة لا مرفأ لها ولا شطآن. جرفني موج هائج من الندم، رميت الوقت والمسافة من حساباتي، إلى أن أنذرني الفجر بشعاع، لم يضيء لي إلا الطريق لسيارتي،

فاتجهت قاصدًا صيدا مرة أخرى، لكن ببطء، الإسفلت كان يئن وجعًا، من ثقل ذنوبي واتهاماتي المتعددة، وجهها ضميري الذي استيقظ من غفوته فجأة، مشيرًا لي بالتقصير والوضاعة.

الاتهام الأكبر انتظرني، على شرفة غرفة نومي المطلة على حديقة المنزل. مريم حائرة قلقة، لا أبالغ إن قلت إن الريح نقلت لي رائحة مسام جلدها الغاضب عن بعد، بادرتني:

-أين كنت؟ هاتفك الغبي المغلق، ماذا دهاه؟.

أجبت بصعوبة، وكأن لساني حمل صخرة: اعذريني مريم، كنت ببيروت، توفي صديق لي عزيز، تأثرت كثيرًا، وأنساني الحزن الاتصال بك أوشحن هاتفي.

بدأ سيل من الاتهامات يشوبها رائحة غيرة الأنثى الهدامة، ألصقت بي شتى الاتهامات والشتائم، زورًا وبهتانًا، أوجعتني رغم أنني تحليت بالصبر.

في إساءة الظن، مقتل للحب في الصميم، وإبادة لمحاولة التفاهم بما تظنه مريم واقعاً وحقائق. حينها لم أستطع الدفاع عن نفسي، أصرت على الافتراء بالباطل، بغير ما اكتسبتُ بهتانًا وظلمًا. لم تكن تعرف شيئًا، فسلمى من مخفيات الماضي.

قدرتي على النقاش معها كانت محدودة، ثَقُلَ لساني، تخلى ساقي عن حملي، التزمت الصمت، كخادم يؤنبه مخدومه على التقصير. اتجهت إلى غرفتي، هربًا من الاصطدام أكثر معها، سعيًا وراء راحة آنية، وقليل من النوم، فنوم المتألم التعب واجب.

تعسر حصولي إلا على قسط يسير منه. يؤسفني أن علاقتي بحبيبتي مريم، زوجتي الغالية، كل ما أملك في هذه الدنيا يعكرها كل هذا الظن السيئ، علاقتنا في تراجع للوراء مستمرًا وهذا ما أقلقني.

اليسر والبركة، لازماني فقط في مجال العمل والمال، تطورت الدار، مما دعاني إلى افتتاح فرع لها في العاصمة بيروت، عرضت على مريم فكرة الانتقال للسكن فيها، لمتابعة أمور العمل عن قرب وسط استغرابها ورفضها بشدة في بداية الأمر:

_ لن أتخلى عن مسقط رأسي وأصدقائي، والمكان الذي عشت فيه أكثر من أربعة عقود من عمري، مستحيل آدم.

وافقت مكرهة بعد إصراري الشديد لترضيني، وذلك بعد أن بذلت جهدًا لا يستهان به لإقناعها. اللحوح هو من يظفر بالفوز دائمًا. شيء ما شدني إلى العودة لبيروت.

بيروت تلك اللؤلؤة التي تطل عليها الجبال لتحرسها، يعانقها البحر في تقارب لا مثيل له. بيتنا الجديد لم يعجبها كثيرًا، رغم أناقته وأثاثه الثمين، ربما لأنه بعيد عن موقع العمل، والشوارع المكتظة بالأسواق. اخترته قاصدًا للابتعاد عن الضجيج، ولعشقي الهدوء والسكينة.

سكتت على مضض، اتجهت إلى الدور العلوي مع الخادمة، فور وصولنا لترتيب متاعنا الشخصي. العبوس قارب بين حاجبيها إلى درجة التصادم، تقلبت كالأعاصير الاستوائية. أعترف أنني فشلت في إسعادها.

***

يوم ميلادي، أيها الموبوء بطاعون الرغبة والخطيئة، تلك الشهوة التي علقت مضغة في رحم أنثى، فانزلقتُ بين أقدام الأحياء أفتش عن اسم لي ومصير.

ذاك اليوم الذي اتفقنا أنا ومريم قبل الزواج على تجاهله، نكثت العهد، فاجأتني كل مرة بهدية أو احتفال، ورغم مرور خمس سنوات على زواجنا، إلا أنها لم تحترم أبدًا رغبتي بالبقاء وحيدًا. ضيقت عليّ الخناق كثيرًا بالتهاني والهدايا، خاصة بالرسائل النصية على هاتفي المحمول.

تشاغلت عن عيد ميلادي دومًا بالعمل، جعلته ذريعة للهروب، تلك الرسائل المزعجة، التي ترافقت مع تهاني رأس السنة الجديدة، أحد أسباب شجارنا. أذكر مرة، بعثت لي يوم ميلادي رسالة نصية على هاتفي المحمول:

-ماذا أهديك، سماء ملونة بطيف قوس قزح، ترافقك أينما ذهبت، أم ديوانًا من الشعر لا يتغنى إلا بحروف اسمك الأولى، أم قلمًا سحريًا يكتشف أفكارك، فيدوّنها على السطور؟ هل يرضيك قارة من حب ولهفة، لم يكتشفها إنسان قبلك، توزع محيطاتها كيفما تشاء؟.

لم أتمالك غضبي وأنا أقرأ، لماذا ترغمني مريم على التذكر، غير آبهة لمشاعري؟ لديها السنة كاملة لتهديني وتغازلني، فلتدع يوم ميلادي التعس.

ردي كان قاسيًا: في آخر يوم من كل سنة ميلادية، لا أرغب إلا قبرًا وشاهدًا، ونعيًا محترمًا دون اسم، في إحدى الصحف اليومية، لا تتوق نفسي لغيرهم عزيزتي منحةً وهديةً.

تستمر المجادلة، تنقلب التهنئة إلى مصيبة، مفتعلة شجارًا: ما بدّلك يا موسى لفرعون؟. أحياتك معي خريف زائف يشوبه العكر، موسوم بالحزن لهذه الدرجة؟.

أصمت مكرهًا لا أمتلك إجابة. تبًا لتلك الرسائل النصية على مواقع التواصل الاجتماعي، فهي تلغي التواصل الروحي والبصري، فتسلك حروفك المسار الخاطئ فاقدًا لعمق إحساسه، بل قد يفسر ضد ما تقصد تمامًا، ليدور بمدارات غريبة لم تكن تعلم بوجودها أصلاً.

أعود يومها للبيت، لأتناول غداءً مميزًا من النشاط الكهربائي العالي "الفولتات"، مع سلطات متنوعة من النكد والغضب، ممزوجًا بالنقد السلبي، يتحول في دقائق إلى تناحر مزمن يقهر الألفاظ بانتقام، ثم شوربة من تراشقات الحديث والكلام الجارح.

كل ذلك دفعة واحدة، دون بروتوكول الغداء المعتاد. عادة أنهي هذا النوع من الشجار بمغادرة البيت، ليومين أو أقل، مع إغلاق هاتفي المحمول.

عندما تغضب المرأة لا تجادلها، ولا تأخذ كلامها بجدية، دع بركانها يتفوه بكل حممه، ثم أصمت وابتعد، فالصمت والابتعاد هما مخرجان وحيدان، في حالة الجنون التي ترهب حتى الجدران والأثاث، وتجعل الخادمة تختبئ، خوفًا من أن تصيبها إحدى الحمم البركانية.

أغادر دون أن أجرحها بكلمة. أقمت في نفس الفندق المطل على الشاطئ عدة مرات، كلما هزّ الكدر بشدة عرش بيتنا الهادئ. مدير الاستقبال كان صديقًا مقربًا، بمجرد أن يراني يحجز لي نفس الغرفة والإطلالة. اهتم بي أكثر من أي نزيل آخر، احترامًا لي أو للإكرامية التي كنت أمنحها.

إكرامية سخية، جعلته يضع الورود الحمراء على فراشي في الغرفة، ذاك الفراش المزين، لم ألمسه طوال فترة غيابي عن فراش مريم. لم أنم إلا قليلاً على الأريكة المجاورة للسرير. أعود بعد أن تهدأ، وأبلغ قدميها قُبلاً حتى ترضى.

***

كان وبال البيت الجديد علينا عسيرًا، زادت الخلافات، لم يمر معظمها بشكل عارض، بل تعقدت الأمور وبالغت مريم في ردود أفعالها، تحولت من إنسانة واعية مدركة، إلى ملاكمة شرسة في حلبة مصارعة.

ملاكمة غير موزونة الكلمات، ضربات تترك كثيرًا من الجروح العاطفية، والندوب النفسية، الشك قتلني قبل أن يقتلها، فانتقلت إليّ عدوى سوء الظن، فما الذي غيرها إلى هذا الحد؟.

تحولت من راضية إلى ناقمة حاقدة. أربكني حتى مجرد التفكير والتساؤل، أتتعالى عليّ بسبب المال والنسب؟ وأنا من سعيت جاهدًا لتطوير العمل وازدهاره، بعد أن أصبح على شفا حفرة من الهاوية بعد وفاة والدها، وأنا من قبضت على التسيب والإهمال بقبضة من حديد.

من جهة النسب، لم تعلم مريم عني شيئًا، انحصرت معلوماتها عن أهلي المفترضين، وقد عُفيّ عن أصولهم وحسبهم بفنائهم، دُفن معهم تحت التراب، فغيب الموت الكذب، وخلطها بالحقيقة في تجانس لا يُفصل.
فما بالها؟!

هل كانت معجبة بذلك المتبجح الوسيم، ذي الحسب والنسب والتحصيل العلمي الرفيع، من جامعات أجنبية تتصف بالرّقي؟ الدكتور أمجد ابن عمها، المصيبة الدائمة التي لم تنجلِ، ابتليت فيها منذ انتقلت لبيروت.

تبعد عيادته عنا بضع كيلومترات، بحكم القرابة والصداقة التي تغنت مريم مصرة على الحديث بها دومًا، وذكر مناقبها ومناقبه. ومن أجل عيونه، ذات النظرات الفاحصة المتفحصة لي، كأنني عدو أو منافس قديم، وجب عليّ تحمل ثقل ظله، ومشاركته مرة أو مرتين أسبوعيًا، طعام الغداء أو العشاء على طاولتنا الميمونة.

ازدان عشاؤنا كثيرًا من المرات بمأكولات يحبها وأكرهها، طاولتنا العامرة بالأطايب مع مزيج من شكوكي، وكثير من الجفاء أطرحه في وجهه بصراحة ووضوح، دون أن يأبه به أو بي فلا يرف له جفن.

راقبته يبتلع ما حضرّت مريم بنهم، كأنه آتٍ من مجاهل إفريقيا، حيث المجاعات، استغربت أين يذهب كل هذا الطعام، وهو الرشيق طولًا ووزنًا.

لم يفقده الشهية معاملتي الفظة، اكتفى بابتسامة واهتمام مريم المرّحبة، التي قطعت كل إشارات الإرسال والتنويه مني، بطرده علنًا من البيت.

حرك الدكتور أمجد الشوكة والسكين على قطعة اللحم، تهيأ لي أنه يحرك بيدق الملك على رقعة الشطرنج. وضع اللقمة في فمه مستمتعًا، وما إن شعر بالأسف لخسارة مذاقها، بعدما استقبلها اتساع المريء والمعدة عنده، حتى انكب على قطعة أخرى يفترسها، ماضغًا معها كل أعصابي وصبري، بسماع صوته المختلط ما بين هرمون الأنوثة والذكورة:

_ ما رأيك سيد آدم أن تزورني في العيادة؟ أخبرتني مريم عمّا تعانيه من وجع في الساقين، وثقل في اللسان يصل إلى التأتأة.

أجبته بسماجة:

_ لا أعاني إلا من إرهاق عمل، يسبب لي الصداع وبعض التعب.

ثم أنفخ ريشي كالطاووس عليه:

_ مريم تهتم بي وتقلق زيادة عن الحد، أنا بخير، بكل الأحوال شكرًا جزيلاً.

ابتسم الدكتور أمجد ابتسامة واسعة، وكأنني رميته بباقة ورد:

_ كما تريد، لكن اسمح لي في المرة القادمة، سأحضر لك دواءً ناجعًا لمثل حالتك المرهقة.

الحشرة، أراد أن يصف لي الدواء، وهو المسخ المحتاج إلى علاج، مصير دوائه القمامة، بعد استئذان القمامة.

_ كم أكرهه.

أخبرت مريم بعد أن غادرنا متخمًا، بالعشاء والحلويات والقهوة، لم يبقَ لمريم إلا مناشدته المبيت عندنا:

-كيف تسمحين له بالتدخل في أموري؟ بلغ بك دلاله والاهتمام به أن تنسي أنني زوجك؟ ليّ الحق عليك بالكتمان والسريّة.

_ هو طبيب يا آدم، لا تنسَ. أجابت دون اهتمام.

_ هذا في قاموسك الحياتي، وليس في قاموسي، فضحُ ستر خصوصياتي غير مقبول على الاطلاق، ولو كان أمجد، أبقراط معلم أفلاطون.

وقفت مريم مكانها، ثبتت عينيها على صورة تضمنا معًا بحميمية يوم زفافنا، علّقناها في قلوبنا، وتعاهدنا أن تبقى صامدة، قبل أن يضمها الحائط بإطار خشبي، وتعليقة من نحاس. استدارت بخفة ليقابل وجهي وجهها، وقالت:

_ اهدأ، هناك ما هو أهم، يجب أن أخبرك به.

جديتها وحزمها أرعباني، انتظرت منها أن تكمل:

_ أكثر من ثماني سنوات مرّت على زواجنا، أريد طفلاً منك. قالت جملتها مريم، دون مقدمات.

شعور غريب أصاب تجويف معدتي، فحفرها، أجبتها بكلمة واحدة فهمت منه المراد:

_ والاتفاق؟.

_ كنت هوجاء في قبوله يا آدم، أريد طفلاً وبشدة.

حاولت مسايرتها، فقلت معاتبًا:

-ما الذي يغريك في الافتراء على حياة جديدة، تولد لتموت؟ وأنا ما زلت للآن أناشد الدهر أن يكفكف حزني، ويطلق نفسي إلى مدينة لا

يطالها فتك توالي السنين، مدينة لا تنشر يومًا فوق أشلائي الثرى، تلدني شابًا في كل طلعة نجم، مدينة لا تذر أخاديد شيبي رفاتًا وتبدد مجون تجاعيدي، ما الذي يغريك؟ وأنا كلما رأيت مولودًا تنفس شهقة، همست له أن الحياة بداية لفراق، وكلما راود نعش عن كفنه، أيقنت أن العمر لحظة فناء.

قالت باكية: أنا مصرّة يا آدم، أتوق إلى الأمومة، هي فضيلة وشرف، وحرماني منها سيكون ذنبك الذي لا يغتفر، من حقي أن أعطر رحمي بما أفتقد، ليزول الفراغ من روحي، ويكون مرآة أرى فيها انعكاس ملامحك، وتلازمني رائحتك، أريده طيفًا نورانيًا من تفاصيلك.

لم ينفعها الاستجداء والدموع. ما بين المزاح والسخرية أجبتها: ألا يكفينا قول المعري، الشاعر الحكيم:

(**هذا ما جناه أبي عليّ\\ وما جنيت على أحد**). ثلاثة أيام، هي الدهر كله، ما هنّ غير الأمس واليوم والغد.

ضحكتُ متجاهلاً الموضوع برمته: أريد طبقًا من الحلوى المخصصة للمتطفل أمجد، أنا جائع.

توجهت إلى المطبخ ممتعضة، لم تُعد طلبها على أسماعي إلا بعد بضعة أشهر، حيث فاجأتني بنتيجة فحوص مخبرية، تنبئ بأنها حامل.

الخبر المستفز، قلب حياتي رأسًا على عقب، أهانت كلمتي ووعدي. أوجعني استهتارها بقرار مصيري، قرار لا يخصها وحدها بل يجمعنا نحن الاثنان، في ركب واحد.

عقابي لها بلغ أشدّه، أشهر طويلة لم يخاطب لساني لسانها، نمت وحيدًا في الغرفة المخصصة للضيوف، في الطابق الأول من منزلنا. وضعت في غرفتي الجديدة كل مستلزماتي، عاقبتها بالوحدة والتجاهل، لم تعترض، وإن كان صمتها على مضض. لم تناقشني لتحظى بما طمحت له، طفل لاحول له ولا قوة، العنيدة بدلت حياتنا المشتركة بطفل سخيف ضعيف، وهبناه الحياة ليشقى.

ثأري منها جزاء لها، كان التهاون في وجودها وغض البصر عنها. أحلفُ أنني نسيت معالم وجهها وجسدها، بعد ما أصابها من تغيرات الحمل، لم تلتقِ العيون إلا بعد أشهر، أوقفتني على الدرج، بعد أن طلبت مني الصعود لتسألني عن شيء ما.

خاطبتني بغضب، وللحامل فصول شديدة، من تقلبات المزاج المدمرة:

-ألم يحن الوقت لتسامحني وتعفو عني؟ سأضع مولودك بعد شهرين، لا شك طفلك يريد أبًا يرعاه، لا خيال مآته لا ينفع ولا يضر، سلبيتك ستجعلني أقوم على تربيته وحدي، لن أسمح لك بالتدخل ما دمت رافضًا له ولوالدته.

ضاهت بهية الصهباء، هذه المخلوقة الحامل بهيجانها، وماثلتها سطوة وقسوة. شرار من غضب تناثر حولي، وسبق تفوهي بكلام جارح، انزلاق رجل مريم من أعلى السلم، وهي مسرعة لمغادرة المنزل.

فقدت الوعي. مرت خمس عشرة دقيقة، وأنا أتأمل مريم مفترشة الأرض، وبقعة من الدماء لا أعرف مصدرها، وشحت البلاط الأنيق بلون أحمر كريه.

وصلت سيارة الإسعاف وسط ذهول الجيران وارتباكي، خيّم الرعب، سجنني الندم بين جدرانه الصلبة، وأنا أرى الخسارة نتيجة الغضب العارم، يسدد كرته في مرمى جنين مريم بجدارة.

أجزم أنها كانت تود قتلي بعد عودة وعيها، لولا أسطول من الإبر والأجهزة، حشروها على صدرها وفي أوردتها، فمنعتها من الحراك.

_ الطبيب يطلبك. همست الممرضة دون أي انفعال أو إحساس، فالجزار يتعود على الذبح والدماء دون أن يرفّ له جفن.

في آخر الممر الطويل، وصولًا إلى عيادة الطبيب المختص، طرقت الباب ودخلت، ومن وراء نظارته الطبية، أدلى بالخبر، كأنه يُسمعني نشرة جوية:

_ أهلاً بك سيد آدم، تفضل، يؤسفني أن طفلكم لم ينجُ رغم محاولتنا إسعافه في الخداج، زوجتك بخير، لكنها لن تستطع إعادة تجربة الحمل مرة أخرى، آسف لخسارتك.

خانني لساني، فزلّ بتساؤل: هل أستطيع رؤية المولود؟.

لسوء حظي، كان رده بالإيجاب، فالدقائق التي قابلت بها ابني المتوفى غيرت حساباتي، سألته روحي بلهفة: بني، هل يعقل أن يكون موعد اللقاء الأول، هو نفسه موعد الوداع الأخير؟.

النفوس مجبولة على الرغبة أكثر بما تفقد. هززته مرة أخرى، علّ الحياة تعود إليه إن أدرك أني راضٍ عن وجوده، الجسد الغض الصغير غلبني بعناده، وانتصر لإرادته في الرحيل رغم كل توسلاتي.

غادرت مريم المشفى وبوادر نهاية فصل الخريف، أقبح فصول السنة، زاد من الكآبة المفرطة، وعلى الباغي تدور الدوائر. أحجمت مريم عن الكلام معي، رغم وجودنا تحت سقف واحد، حجبت عني صوتها الملائكي، لتجازيني بما عاقبتها به سابقًا.

***

أفتقدُ فراشها الدافئ، وحنانها، حديثها، حتى رسائلها النصية في عيد ميلادي، ربما كنت أمقتها لأنها كانت سبب شجارنا المتكرر، لكنني الآن أشتاقها.

هل ستعفو عني اليوم وتسامحني؟. يوم عيد ميلادي الأربعين. أربعون عودًا من الغم والذاكرة الأليمة، ستكمل اشتعالها اليوم على جسدي الضائع، دونما شفقة.

أصابعي ترفض العد، وتهددني بالقطع إن فعلت. رأسي ينفجر، سأحلق شعري من جديد غدًا، لتغادر أفاعي الأفكار من قشرة دماغي دون عائق. ليتني أستطيع التكوّر من جديد، والعودة إلى رحم أمي.

قيدي يشتد، فراشي بارد، يزيده وحدتي صقيعًا أجوفًا. طعم الماء الآسن ما زال في حلقي، خزائن الانتظار والترقب ثملت من ذكريات الماضي.

وها أنذا أستسلم. أستسلم للنوم.

رويدًا. رويدًا.

***

الفصل الثاني

(مريم)

" الحقيقة "

هل يمكن لانعكاس خيال إنسان تحبه منذ عقد من الزمن أن يتحوّل، رغم بقائه حيًا يرزق إلى مجرد خيالات مصلوبة على جدران غرفته وفراشه؟

نافذته ما زالت تحتفظ بأنفاسه، سرقتها منه كلما اقترب من زجاجها مراقب ما حوله.

الساعة المعلقة على الجدار صامتة، معطلة، لا تجرؤ على الضجيج احترامًا لرغبته بالهدوء، وخوفًا من بطشه.

الثلاجة الصغيرة مفتوحة قليلاً، لا بد أن كل ما فيها أصابه العطب، عندما خسر برودته، كما خسرته. وأنا أصفق بابها صفقة أقوى مما يلزم بقليل، سمعت صوت مدبرة المنزل تسألني:

-الحقائب جاهزة مدام مريم، هل أخبر السائق أن يحضر الآن؟.

_ فليكن هنا بعد ساعتين بالضبط، استعدادًا للمغادرة، ووجهتنا المطار.

أجبتها بذهول، غير واثقة مما قد أُقدم عليه.

أشباح بلا ألوان قبعت عند حواف دماغي، ترفض أن تتلاشى، يتقدمها شبح اللحظة الأولى، لحظة لقائي بآدم.

***

قوة غامضة، قرعت كل أبواب مشاعري المؤصدة، عندما لمحت جرأة عينيه الخضراوين أول مرة، تفحصني كأنه يقلب رواية مهمة تخصه، قرأ ما بداخلي رغم تحفظي، فانهارت مقاومتي.

أحببته منذ النظرة الأولى، وبادلني ما أشعر به بوضوح جلي. ما لبث حبنا أن أصبح أسيرًا بين رسالة، عبر الهاتف المحمول أو لقاء خفي قصير بالمكتب، بعد مغادرة الموظفين.

أحيانًا جمعنا غداء في مكان بعيد عن أعين المتطفلين. إلى أن اتفقنا أن يكون ليلة إشهاري لديوان شعري الأول، إشهارًا أيضًا لحرية حبنا المعتقل، بين أسوار الحذر والحيطة، قرابة عامين.

الدهشة اعترتني لغرابة ردة فعله ليلة الحفل، استمرت تلك الدهشة إلى صباح اليوم التالي، حيث التقيته في مقهانا المعتاد.

سمعنا بعد عودتنا إلى البيت بالخبر المشؤوم، حيث قضى والدي ووالده. في بداية الأمر، مرّ آدم بلحظات صعبة مثلي، غاب طويلاً، لم يكن موجودًا لمساندتي في محنتي، صبرت متأملة أن يعود كما كان.

الصبر من غرائز المرأة، يُخلق معها، وهو أشد أسلحتها أهمية، يكفيها أنها تتحمل شدة الحمل والولادة، ومعاناة الرضاعة، ناهيك عن تغيراتها الهرمونية التي لا تهدأ منذ بلوغها، فتصيبها بكل أنواع الألم والاكتئاب.

الأنثى كذلك تحتاج التبصر والروية والجلد، لتسلم وتنجو. لم أكن تلك المتبصرة، تطوّع قلبي للستر على بصيرتي، بغطاء الحب وباسم العشق، كنت للصبر التزامًا وعنوانًا، فنفاذه بكل بساطة يعني ألا أحظى بنتيجتي المرجوة.

نفذت طاقتي، بدوت أكثر شحوبًا، احتجت آدم بشدة؛ فهو من يستطيع أن يتوسل لمأساة قلبي حتى ترأف بي، فلا تُلحقني بثرى والدي.

توجهت لبيته دون تردد، طرقت الباب بهدوء وفتح. فرحت لرؤيته بعد طول غياب، كنت غاضبة منه إلى حد أن لحظة الفرح تلك، سببت لي الألم المبرح ووخزت أعصابي التالفة، زاد الأمر شدة لا مبالاته برؤيتي، ومظهره الجديد برأس أملس فقد جمال شعره طواعية، وثياب مهملة ضاعت منها الأناقة.

احتلتُ على خواء الموقف السخيف، الذي وضعت نفسي به، بعذر العمل وتوقفه في الدار بسبب إهمالنا.

عادت لقاءاتنا بعد عودتنا للعمل في دار النشر، أكثر جرأة وراحة في ساحة الغرام، فلدينا الوقت والمكان، ومعدومية الرقابة. بيته الذي منحه والدي للعم عماد، عندما انتقل من بيروت إلى صيدا، كان عشّنا الصغير الجميل، ملأناه حبًا وموسيقى.

وفي ليلة، ساهم سقوط الثلج وتراكمه على الأرصفة، بحجزي موجودةً بين ذراعيه، زاد من اعتقالي الاختياري، صوته الدافئ: "حبيبتي، ابقِ الليلة عندي، القيادة خطرة".

ولسماع الموسيقى وخطر نشوتها، منحدر عظيم قد يهوي بك إلى ما لا يعرف ماهية عقباه. اضطجعت شهرزاد على وسائد عشق مخملية، واختلق السرير رغبة شرسة محتومة لا تقاوم، فأصبح التمنع كليلاً إلى أن غادر متبخترًا.

ولج الفجر عذرية الصباح، فأشبع شبقه إلى النور، وقُضي الأمر. لمح آدم اللون الأحمر فارتعد مبتعدًا، طمأنته، فلن أكون سوى معه وله. في حزم، ألقى في أذني كلمة واحدة أسعدتني:

_ سنتزوج.. لم أنتظر منه سوى الحب، لكن الزواج بعد تلك الليلة أصبح ضرورة ملحة.

اجتزنا مصاعب عديدة، بالإضافة إلى شكي ببعض من تصرفاته من فترة إلى أخرى، واستغرابي لمواقف وأساليب نادرة يغشاها بلا اكتراث.

تزوجنا. حفل زفافنا الهادئ الجميل، لم ينغصه سوى شروده المستمر، ووجود نهلة، أصرّ آدم على دعوتها، ربما ليبرهن لي براءة علاقتهما.

لم يعلم أن الزمن كفيل بإظهار الصواب، فحبل الكذب قصير، والحقيقة كالشمس، لا يمكن إخفاؤها وراء ثقوب غربال.

بعد زواجي بسنوات زارتني نهلة مودّعة، قبل هجرتها الدائمة إلى السويد، مع زوجها الثري العجوز. اعترفت لي بعلاقة كانت تربطها بآدم في الخفاء، علاقة آنية بلا وعود منه ولا ارتباط جدي، وصلت بهم إلى حد مسامرة الأجساد في بعض الليالي.

افتعلت نهلة الاعتراف وطلب المسامحة، لأغفر لها قبل هجرتها، كما قالت.

أعتقد النية الحقيقة كانت شفاءً لغيظها المكتوم، وانتقامها مني، لتفاخر أنها أول من اعتلت القمم.

لم أواجه آدم بإفكه، وخداعه لي بالماضي؛ فما دام ما حصل قد حصل قبل الارتباط المقدس بيننا، نسيت الموضوع برمته بمجرد مغادرتها. لم يكن ينقص حياتنا المشتركة منغصات وتصادم.

ليلة زفافي زادت دهشتي، باستغرابه انسجام وسهولة تقاربنا الجسدي، كأنه نسى أنه من فتح ظهر التوق بمشيئته. استغراب استحال إلى هذيان للحظة، ثم اضطراب وذهول وتجاهل تام.

لم تكن سنوات زواجنا يسرة سهلة، طغت عليها بشدة الخلافات المتكررة والعراك، على أسباب تافهة أحيانًا. كَرِهَ عيد مولده، حية رقطاء تلدغه في كل سنة.

لسوء حظي في العام الأول من زواجنا، أهديت جلد معصمه البرونزي الجميل، ساعة يد بعقرب ثوانٍ مطبوع عليها قبلة تليق بشغفي به، وأخبرته وأنا أضعها في يده اليسرى:

_ الساعة تقيد الوقت بأربع وعشرين دورة مملة متكررة، أما أنا فسوف أقيد معصمك بخرافة لا تُمل، خرافة متوشحة بأطياف حلم سعيد، وخيال يقظة متجدد.

أصابه ما أصابه ليلتها من نزق وانفعال، خلعها بسرعة، اتجه إلى المطبخ، وضعها في الخلاط الكهربائي، تلك المسكينة كانت ترجو الدلال والاهتمام، مزقها إربًا بالجهاز الجبار.

صوت ضحكة آدم المخيفة المستهترة، فاقت صوت القرقعة فأخفتها. اشتد الاشتباك بعدها بيننا، انتهى الأمر بمغادرة آدم البيت، ومبيته خارج عرش قلبي، لأبقى وحدي مع العشاء والشموع وقالب من كيك حمل صورته، كل جهودي لإنجاح الليلة ذهبت سدى. عاد معتذرًا محملاً بالورود والهدايا، في اليوم الذي يليه.

تعبٌ وارهاق ظهرا بوضوح على وجهه وجسده، كأنه لم ينم، أشفقت عليه من نفسه ومني، تخطيت الموضوع على أمل ألّا يتكرر.

***

لطالما رغبت أن أكون زوجة صالحة حنونًا، تصبر على تقلبات زوجها، وحالته الصحية التي تتردى للحضيض أكثر من مرة في السنة. قررت أن ننتقل لنقيم في بيروت، خاصة أن فرعًا من دار نشرنا بدأ يزدهر واحتاج إلى متابعة.

صداعه المتكرر مع نسيانه الدائم وشروده، تصرفاته الغريبة وثقل لسانه، وصل حد التأتأة فلا نفهم له حديثًا، وجع ساقيه، كل ذلك دفعني للإصرار على الانتقال إلى العاصمة، قريبًا من عيادة ابن عمي الطبيب أمجد.

ابن عمي طبيب ماهر جدًا، يُشار إليه بالبنان فيما يتعلق باختصاصه العصبي والنفسي، وبالأخص بعد أن أجرينا فحوصًا شاملة لآدم في صيدا دون فائدة، كلها سليمة، لم نضع يدنا على العلّة الحقيقة. لم يعانِ عضويًا حسب التحاليل المخبرية من شيء يذكر.

من جهة أخرى، بدأت بعض المؤشرات المزعجة المبكرة، بالظهور على جسدي ومزاجي، بعدما تجاوزت الثانية والأربعين من العمر.

راجعت طبيبًا نسائيًا، أخبرني بعد الفحوصات المملة: تبدئين للأسف مرحلة تغيرات جسدية، تسبق فترة انقطاع الطمث، وحسب ما رأيت فإن فرصك في الحمل أصبحت محدودة أو معدومة، ستتأقلمين مع الأمر الجديد بمرور الوقت، فلا تقلقي، اعذريني مدام مريم، واجبي يحتم عليّ إخبارك الحقيقة كاملة.

ما أقسى الأطباء، قدّت قلوبهم من حجر، لا يدركون عواقب إصغاء أسماعنا لحقائقهم المزعومة. أطلقت كمًا من الشتائم بحق ذاك الطبيب الصريح، ولا تلومنّ ريقًا غاضبًا أطلق من الكلام شتاتًا.

اتجهت فورًا إلى عيادة ابن عمي، لأشكو له حرقة ما جرّعني صديقه الذي أوصى به بنفسه، من كأس الواقع المرير. استقبلني كعادته بحنان وابتسامة عريضة، هدأ من روعي صوته المهتم:

_ ليس عليك أن تخجلي يا مريم، جزء من إنسانيتك مرورك بلحظات ضعف، فلا داعي أن تبدي صلبة شجاعة دائمًا، أنا إلى جانبك وتعلمين كم يهمني أمرك.

حدثتني نفسي بصمت: بل أعلم تمام العلم يا أمجد أنك تحبني منذ أن كنت في طور المراهقة.

عدت بالذاكرة إلى مربى برئ عشنا به ولعبنا معًا، أظهر لي حبه بعد طور الطفولة، ومنذ بداية الشباب، تجاهلته لإصراري على الاعتناء بوالدي، الذي أفنى عمره لأجلي متخليًا عن زوجته والنساء أجمع.

احترم قراري بشدة، كشدة صدمته بزواجي، الذي تقبله متغافلاً عن مشاعره.

يرضي غروري الأنثوي أنه لم يتزوج إلى الآن، أنانيتي وجشعي العاطفي أسعدهما أن أكون السبب.

أعادني صوته من صدى أيام مضت، عافها الزمان، فاهترأ رداؤها، فهو لا يشعر نحوي بعد أن تزوجت، إلا بالشفقة والقرابة وحفظ العشرة والصداقة.

قبل أن أغادر العيادة، اقترح عليّ: ما رأيك أن تنجبي طفلاً، سيكون نِعمَ العون لك في المرحلة القادمة، أملاً يطرد اليأس وما يشاطره، من أزمات نفسية وجسدية. هززت رأسي موافقة.

مرت أشهر قبل أن أستجمع شجاعتي، لأعرض الفكرة على آدم، فكرة قاومها بكل ما أوتي من رفض واستهجان، بمجرد التلميح لها. معركة انتصر فيها، لم أتمكن حتى بحيلتي ومكري، ودهاء الأنثى، أن أستدرجه للخسارة فيها.

أدواته بسيطة جدًا، هجرني، امتنع عن لمسي نهائيًا، وتكررت غياباته الحمقاء. الحماقات المتكررة ذنوب، لم يكن بوسعي غفرانها.

كلما غادر ليلة أو ليلتين جاهلة مقصده ومبيته، أصاب النفس ضيق، فخلع الصبر رداءه، وتململت الشرايين قلقًا ووحدة، فألقت على الروح سلام المغادرين.

تمسّكتُ بدقات قلبي المندفعة من صدري، ثم لامست هاتفي بلا وعي لأكتب أول حرف من اسم ابن عمي أمجد، ليؤنس وحشتي صوته الرزين، وأجوبته التي قاربت الإقناع بروية الخبير:

_ روعك المشتت الغاضب يا مريم قد يؤذي صحتك، الزمي الهدوء أرجوك، قد يكون آدم مضطربًا نفسيًا، كما أكاد أجزم، بل أنا متأكد، لملاحظتي له بالمرات العديدة التي التقينا بها، هل يتناول الدواء الذي أحضرته بانتظام؟.

أجيبه بالإيجاب، ونتابع ساعات طويلة من المحادثة، عبر الجهاز الصغير دون أن نشعر. شملت محادثتنا كل أمور المجتمع والسياسة والأدب، لا يقربنا ملل أو ضيق، أو شعور بمضي الوقت.

ظلت أذن أمجد متعلقة بصوتي، إلى أن يغلب جفوني النعاس، فأنام ثم أستيقظ، لأجد نفسي محملة بمشاعر الغضب، وهاتفي المحمول ما زال بيدي، فأُرسلُ إلى آدم رسالة وعيد وتهديد، علّه يفهم وينقذني قبل فوات الأوان:

-ترّجل عن خاصرة الليل، ودع الوقت يستغث، بنجمٍ أفل عقارب ثوانيك، شارفت على الفناء فارحل.

رقصة الراهب غرقت في عتمة الوحل

صفعك الظلام فبدلك، فتات ظل عاجز

ظلك مزيف من الأزلْ

وظلي حقيقي لم يزلْ

مسامك اختنقت في ثوب القديس

استغاث زيفك من جلدك، فخلعه

كشف سوءتك، فاهرب

معلقةٌ أنا بين أطياف عناقيدك الحريرية

وأشباح مسامير، يدقها إزميل انفصامك المعتوه

فلعقلك مراسم

ولقلبك مواسم

كفيف قلبي صدّق

ظلال سياط سيوفك المزينة، بورد الجنيات

وأمل من بالمقابر

عابرٌ أنت، لم تدرك

نور الطريق

ولا نقاء الرفيق

خذلتني فراشات، علقتها بيديك على مرمى مجاديفي

لتكفر المآقي العطشى بالماء

سأرميك وأرميها على ضفة اللهفة

فاقفز وحيدًا إلى مستنقع مثقوب بالعدم

مستنقع الأحكام العرفية

ردد تعويذة أشرعتك الطينية

واجذب إلى نارك، صلاة شياطينك

ومني، ومن تأويل الملائكة، لا تقترب

***

أحتار، ويصيبني مسٌّ من الجنون، عندما يُعقب برد غريب ورسالة صوتية حنونة على هاتفي: عزيزتي، ديوانك الجديد الذي تنوين نشره،

يلتزم التفعيلة والقافية، هل ستقحمين هذا النص النثري معه؟ على كل حال، هو جميل مثلك مريمتي .

ماء بارد كالثلج، سال من رأسي إلى أخمص قدمي، فأنهي النقاش والاستغباء العجيب برسالة ختامية: قصيدة بلا روح، لا بحر لها ولا تفعيلة، مهما توازنت واتزنت، فالشعر شعور، لا يجوز رسمه إلا بريشة القلب، فكيف أصنع لصنم قلبًا يدرك ويفهم؟.

***

تورم قلبي بالمشاعر المضطربة فانفجر، عاد آدم في اليوم التالي، رافضة أنا اعتذاره وأطلب منه بجدية الابتعاد عني، فيسألني ببراءة:

_ ألم تنامي غاليتي؟

أجيبه:

_ ينام على كتفي ألف وجع ووجع، محوره أنت.

يستغرب ردة فعلي، وهو مشدوهٌ، ثم يعود خائبًا إلى وحدته، وأعود أنا من جديد لأشتكي لابن عمي أمجد، فيخفف عني ما ألمّ بي من حسرة.
بقيت مسامحة، متخطية لذنوبه إلى أن كرهته.
من المستطاع رتق ثقوب الحب بخيط من تجاوز ومغفرة، لكن، ليس للكره خيوط تردم الخَرقَ. كيدي هذه المرة، ضرب الضربة القاضية.
اعتدت أن أزور أمجد في عيادته مرة تلو المرة، نتناقش فيها بعفوية، نضحك بعيدًا عن الغم والكرب في البيت. بيتنا الذي استفحلت فيه المعارك في الفترة الأخيرة، وقد طلبنا أنا وأمجد أحيانًا غداءً من مطعم قريب.
تمضي الساعات، يلغي أمجد مواعيد عيادته فترة ما بعد الظهر، كُرمى لزيارتي. أشار لي بعد الغداء لتناول قطعة من الأناناس:
_ الأناناس والبرتقال والجوافة، مهمة للأنثى، لزيادة فرص الحمل.
اخترقت جملته ثرثرة نهمي للطعام، فبلعت مع ما مضغت من لقمة، كلامًا جارحًا، بشربة ماء. لا علم لي بقصد أو لا، رمى أمجد تلك السهام على مسمعي، أجبته وأنا شبه مخنوقة:

_ آدم لم يقربني منذ أشهر، هو رافض لفكرة الحمل والأطفال حتى بالتبنّي، لا أمل يا أمجد!.

بدأت اللحظة تتباطأ، توقفت الأرض عن الدوران، همس لي:

_ غبيٌ كديك مغرور آدم.

اقترب مني أكثر، طالبًا الخلود بقربي. تأبطت ذراعه حول خصري متشبثة، محاولة فك إزار العفة باللهفة، وقال:

_ وأنا أقصى آمالي، طفل أنت أمه.

لم أقاوم، الخطيئة يشعلها عقلٌ متربص، قلب جريح، وجسد محروم. راحتا يديه، شفاهه المستعرة شوقًا ورغبة، بحثتا عن سعادتي دون ارتباك، وأنا سلّمته ما سلّمت لآدم يومًا، قبل أن تصبح علاقتنا شرعية.

كان ودودًا لطيفًا، منحني ضعف ما أخذ بسخاء، عوّض ما ضنّ عليّ زوجي الشحيح، زوجي الذي أوصلني إلى حضن أمجد، على صينية من الخسّة المرصعة بالأذى والتحقير، وبإطار غبي من الإهمال.

أزعجني وأنا مع أمجد أن حواسي لم تتعدَ الخمس، فتقاربي الجسدي مع آدم كان له خصوصية، بحواس أخرى تفوق بكثير. حاولت تناسي الأمر، وعدت نفسي بعدم تكراره، تجاهلت اتصالات ورسائل أمجد، إلى أن ذكرني فحص الحمل المنزلي بعد أقل من ثلاثة أسابيع، حيث بدأت أعراض التقاء مجرى المائيْن ظاهرة تنبئ بالنجاح البالغ؛ لتثمر روح طفل في أحشائي.

صدفة، خطيئة واحدة، جعلت حلمي في متناول رحمي، وتحدت الأطباء وعلمهم ومعادلاتهم السخيفة.

_ أنا حامل. أخبرت أمجد مذعورة.

_ لا تخافي، اطلبي التفرقة وسنتزوج فورًا، أنا إلى جانبك.

_ سيظهر عليّ الحمل، ويعلم أنني خائنة.

_ لا، أنتِ إنسانة، وهو خسرك.

***

فوق موجة من نار، عامت نفسي حائرة، لم أستطع إخباره بحملي، إلا بعد مضي ثلاثة أشهر، عندما بدأ انتفاخ الإثم يوجع باطني، فيبرز بطني مزهوًا بالفجور.

وضعت نصب عينيه نتيجة الحمل الإيجابية، لعله يعفيني من صراحة باقي التفاصيل. اجتاحني كل ما بالكون من نار السعير الجهنمية، لتجاهله أن الطفل من جينات غيره.

قال لي:

_ مبارك.

ثم أخذ باقي مستلزماته من غرفتنا، حتى لا يُبقي شيئًا من رائحة فقدانه.

عدم الأمان والخوف رسم فوق قلبي إشارة هلع وانتظار، أخبرني المحامي أن قضية الخُلع تحتاج بضعة أشهر، فبما أنني تزوجت على دينه، فلا بدّ لي من التفريق على دينه.

جنيني رفض أن يبطئ نموه فقط لأشهر، حتى أحصل على حريتي. وصل آدم خبر طلبي الخلع، توقعته أن يثور محطمًا كل ما حوله وأولهم أنا، لكن، كأن شيئًا لم يكن.

غادر البيت يومًا أو يومين، لا أذكر بالضبط، ثم عاد لا يخاطب لساني لسانه، حتى ظِلانا لم يتقابلا ولو بالصدفة، كل تلك الفترة.

استعرت من الوقت قليلاً من لحظات الأمان والحماية، وبعضًا من تبجح المحامي الواثق، ككل من يعمل بصنعته بنجاح القضية المضمون، خاصة مع عدم حضور آدم إلى المحكمة رغم تبليغه رسميًا، وقليلاً من وشوشة أمجد لي، بحياة سعيدة مستقرة مع ابننا القادم، لا ينالها إلا الأفق الواضح والصدق.

ابتدأ مشواري مع شهري السابع، الحمل أثقل جسدي، تركه متورمًا مرهقًا، ناهيك عن النزاع المستمر بين جنيني الذي قارب الاكتمال وحركته، وحموضة معدتي القاتل، مما سبب لي توترًا دعاني للصراخ في

وجه آدم، في إحدى الأيام، بعد أن دعوته إلى الطابق العلوي من المنزل، لنتباحث في موضوع الطلاق والحمل: سنتكلم يا مريم بعد أن تلدي الطفل.

ناح لساني صارخًا: ما بالك والطفل؟ هو طفل أمجد، وأنت تدرك ذلك، لن تشارك في تربيته، ولن تلمحه.

اقترب مني آدم، جسدًا فاقد العقل والإرادة، لمحت في عينيه الإصرار على تنفيذ مهمة، توجستُ شرًا، فتراجعت إلى الخلف بخطوات بطيئة، استعدادًا لنزول الدرج والهروب، لمسة افتقدتها أشهرًا، من يد آدم، عنيفة قوية، اجتمع لقوتها كل كواسر الكرة الأرضية ووحوشها.

دفعني فسقطت، وسقطت معي أمنيّة، علّقتها بين الرجاء والترقب أشهرًا طويلة. مات طفلي ودفن، ودفنت معه حادثة دفع آدم لي من أعلى السلم متعمدًا. لم يكن باحتمالي الصبر، على لسع براكين الألسن لسمعتي

وشرفي. فوصمة العار خدشٌ لا شفاء له. يكفيني حزني على طفل لم يرَ النور.

أخبرت الجميع أن قدمي زلّت، ووقعت عن الدرج لوحدي حتى أمجد، عشيقي ووالد الطفل الذي قضى، وزوجي المستقبلي كما قررنا.

***

بعد خروجي من المشفى، طلب مني أمجد أن أستعد خلال أسبوع أو أقل للسفر خارج لبنان، لننتظر حكم التفريق بعيدًا عن التوتر ثم نتزوج.

الحنان والعطف والتفهم، يغنيك تواجدهم عن الحب والشغف غالبًا، لذلك اتخذت قراري بالبقاء مع أمجد.

وافقت، على أن يمنحني وقتًا إضافيًا، لأكشف النقاب عن سرية غياب آدم طوال السنين الماضية، فأغادر دون ندم.

لا تحاول المرأة انتهاك خصوصية شريكها وأسراره، إلا بعد أن يَخْرسَ صهيل الحب، فيتفشى النفور والحقد معلنًا البغضاء. كنت بالسابق أداري

حبي له بغطاء من الثقة والوفاء، خوفًا على نفسي لا عليه من جرح الخيانة.

عاد أمجد لجديّته الطبيّة فجأة دون سابق إنذار، حذرني:

_ مريم، لا بد من الحيطة والوعي، أنا متأكد أن آدم يعاني مشاكل نفسية، وترسبات ذهنية قديمة نجهلها، بهذه الحالة لا يجوز لك مواجهته، حتى لا ينهار؛ فيفشل عقله الذكي في استيعاب الضربة.

وبصوت أكثر جديّة، أكمل أمجد:

_ قوة استمرار ذهن آدم المتيقظ، يكمن في المسايرة والإخفاء، إخفاء وضعه الصحي عمن حوله. ثم أدار وجهه، بعد تفكير عميق، وبابتسامة خبيثة الغاية منها واضحة، لطرد آدم من مشاعري نهائيًا، فيضمن أحقيته الأبدية في التواجد قربي:

_ لا ضير في كشفه دون مواجهته، إن رغبتِ بذلك مريم. ثم حضنني ربما ليواري مكره.

بدأت الجولات التفتيشية في هاتفه المحمول، كلما سنحت الفرصة لذلك، أو عندما يترك هاتفه في الصالة أو المطبخ.

جولات باءت كلها بالفشل المريع. احترت، هل ظنوني واهمة ظالمة، أم هو ذكي حريص يُخفي كل آثاره؟ كسمكة الببغاء التي تعيش حول الشعاب المرجانية، في البحار الدافئة، فهي لا تنام إلا بعد أن تشكل حولها نوعًا من الغطاء الرقيق الشفاف، الذي يشبه الشرنقة، فيطلق ذاك الرداء الواقي رائحة مقززة نفاذة، تبعد عنها جميع الكائنات المفترسة.

وفي التمويه السلام؛ لقطع شك التمويه بيقين الواقع، قررت اللحاق به يوم عيد ميلاده. بقي على مغامرتي، بالخروج ليلاً متلصصة وراءه بوقت متأخر يومان، يا ليتني لم أفعل.

في الظلام الداكن وقبل أن يعلن الفجر قدومه، تسلل بهدوء السلحفاة مغادرًا غرفته بحذر، مغلقًا باب المنزل بسكون وروية، ثم استقلّ سيارته متوجهًا إلى حي فقير من أحياء بيروت، كنت خلفه بسيارة صديقة لي، استعرتها لهذه المهمة خصيصًا، احتفظت بمسافة معقولة بيننا، فلم يلحظ وجود مركبة تلاحقه.

أقلَّ من حي قديم، مراهق يقارب الرابعة عشرة من عمره، بملابس رثة، ركب بمحاذاته، وانطلقا إلى شارع خلفي. نزلا من السيارة إلى عمارة سكنية قديمة، قريبة من حديقة للأطفال تسمى، "حديقة السعادة"، ويجاورها ملحمة باسم غريب، "ملحمة الفرح".

انتظرت ما يقارب النصف ساعة وأنا مترددة، إلى أن حزمت أمري بالمواجهة، فهناك أمور في الحياة لا تجري عليها القوانين والتروي.

عند المصعد سألني حارس العمارة، وهو يتثاءب بكسل عن مبتغاي في مثل تلك الساعة. أشرت إلى السيارة الواضحة، من خلال زجاج مدخل العمارة وإضاءة الشارع:

_ أريد صاحبها في أمر عاجل، لا يحتمل تأخيرًا.

ووسط نظرات الريبة، أجابني:

_ "الباشا آدم" ! أفضل القاطنين هنا، يسكن منذ سبع سنوات، كريم جدًا، لم يقصر معي أبدًا.

اخترقتُ تلك الثرثرة والتلميحات بمئة دولار، مشيرة له بقص طول لسانه:

_ أي طابق؟ ما رقم الشقة؟.

التهم المئة دولار بعينيه، ثم قذفها في جيبه بسرعة بوله العاشق:

-الطابق الرابع يا مدام، شقة رقم ثمانية.

طرقت الباب طرقات عنيفة، فتح لي نفس الطفل المراهق الذي أقلّه من الحي الفقير مترنحًا، ورائحة الخمرة تفوح منه.

ارتدى كساءً غريبًا واسعًا، يشبه العباءة الحريرية التي يرتديها الشيوخ، لونها أحمر شفاف مع بعض السواد. ظهر آدم خلفه بعد ثوان، يلبس نفس الرداء، من مقاس آخر، مؤنبًا له على الاستهتار بفتح الباب.

التقت عينا آدم الخضراوان المذهولتان بعينيّ، نظراتي المستفسرة المستنكرة أرهبت آدم، فرجف اللحظُ جفاءً ورعبًا فَعَافَهُ، وحام في

الفضاء تائهًا. وضع يديه على أذنيه، كأن صوتي المتسائل هلوسة جن، لا يستطيع التواصل معه.
تلفّت حوله، كمن يبحث عن جحر للاختباء، أبعدني عن الباب بعنف، وركض في الشارع بلباسه الفاضح للعورة، مثيرًا الجلبة والضوضاء.

سرعان ما طلب أحد الجيران شرطة النجدة، ظنّوه معتوهًا يعيش في الشارع عبثًا. توارى ظلي مختبئًا لأتجه مسرعة إلى سيارتي، خوفًا من الفضيحة.

قصدت البيت، لأحرق كل ما يمت بصلة لآدم الشاذ السكير، صرخت أعماقي بحرقة، أين منك يا آدم تربية الشيخ الجليل؟ لم تُغنِك ولم تسد جوع كفرك، لن أسامحك.

وفي خضم حزمي لأمتعته، استعدادًا لحرقها، وجدت دفترًا مخبأً بين كتبه بحرفية وعناية، فأوقفني لونه، لون الدم القاني. تخلص آدم من كل ما كان لونه أحمرًا، حتى الأثاث والكساء.

غادرت الدهشة، وحلّت مكانها الحقيقة، بعدما قرأت مذكراته، التي لا يليق بها إلا لون المعاناة، سنوات طويلة من الألم والمرض منذ الطفولة، طفولة آدم البائسة.

دموع الحسرة والندم رافقت شفقتي على زوجي، صاحب السر الثقيل. لم يصلني صراخ معاناته، أنانيتي وبحثي عن حقوقي المزعومة، كانت سدًا منيعًا لصدى صوته الراجي المساعدة.

كان بمقدوري الإشراف على علاجه، والاهتمام به لو لاحظت أكثر. وأي ضمائر، ضمائرنا النائمة؟ ران عليها الظلم وأنهكها، فجعلنا من الضحية آثمًا.

***

صباح هذا اليوم كان معتمًا، لم يسعَ النور إلى القلوب ليضيئها. ضلَّ الإشراق موطئ قدمه، فسقط في مغبة الهلاك. بعد اتصالي مع أمجد وإخباره بجريمتي، توجهت إلى عيادته حاملة مذكرات آدم، لأستوضح ما آلت إليه الأمور.

بعد عدة اتصالات مع معارفه وأصدقائه، علمنا أن آدم في مشفى للأمراض العصبية، وكذلك أرسلوا الطفل المراهق إلى دار من دور الرعاية. سارعنا إلى المشفى معًا.. الزيارة ممنوعة، أول ما نطق به أحد الأطباء.

بعد الاستفسار عن حالته، قصدنا طبيبه المشرف عليه، وكعادة بعض الأطباء في وقاحة، عفوًا، أقصد صراحة مقالهم عن أحوال مرضاهم، أخبرنا:

_ المريض مصاب باضطراب عقلي مزمن، أدى إلى فصام حاد، يعاني الآن من هلوسة وفقدان ذاكرة، سيحتاج وقتًا طويلاً للشفاء، مع احتمالية عدم عودته نهائيًا إلى طبيعته، علاجه سيكون صعبًا.

مددت يدي إلى الطبيب بمذكرات زوجي آدم، ذات اللون القاني، قائلة:

_ قد تهمك ما تحتوي هذه في العلاج.

ثم انهرت صارخة:

_ أنا السبب، غفرانك ربي.

غادرنا المصح النفسي وقلبي المتعسف الجاحد، تحول إلى مضغة من حنان وبقي عند آدم. ابتدأ أمجد الحديث:

_ احزمي حقائبك، سأحجز تذكرتين، وأرتب أموري لنسافر مساءً، سأنتظرك في المطار، أعدك بأن أبذل كل ما بوسعي لتنسي كل ما مررت به.

سألته:

_ وآدم؟.

رد أمجد بارتياح، وكأنه تخلص من عقبة خطرة، هددت مسار طريق سعادته بالاستحواذ عليّ:

_ سيطول علاجه يا مريم، الرب يرعاه.

عدت إلى البيت منكسرة، أغلقت هاتفي المحمول ومكثت في محراب آدم ساعات، آدم زوجي وحبيبي الأول والأخير. وها هي ربّة المنزل تقف عند الباب، لتخبرني أن السائق جاهز، وأمجد ينتظر ردي على الهاتف الأرضي. خلال خطواتي القليلة إلى الصالة، همست لربّة المنزل:

_ أعيدي محتويات الحقيبة إلى مكانها، واصرفي السائق.

بدون أن أنتظر ردًا من أمجد، أغلقت السماعة بوجهه، بعد أن كسرت أبواق زيف حكايتي معه بجملتين:

_ كلنا مصابون بالفصام يا عزيزي، اعذرني لن أسافر، وما دامت كل طرق الحياة تقود إلى متاهة، فلا يهم كم من الوقت سأنتظر، لألتقي آدم من جديد.

-انتهت

-انتهت.

(ومع مريم، ننتظر، على أمل عودة آدم في الجزء الثاني!)

***

ملحق:

دراسة مختصرة عن
(الفصام، سرطان الأمراض النفسية، وأخطرها)

الفصام مرض عقلي يرتبط بالمخ، لوحظ أن له علاقة بحدوث مشاكل في مواد كيميائية، تعزز في الدماغ طبيعيًا، عن طريق الناقلين العصبيّن، دوبامين، وغلوتا ميت.

والفصام ليس في حقيقته مرضًا واحدًا، بل مجموعة من الاضطرابات، التي يقع فيها المريض ضحية هلوسات واعتقادات خاطئة، يجهل المريض نفسه سببًا لها ولتصرفاته، وهناك أنواع عديدة من الهلاوس البصرية والشمية واللمسية والسمعية، تثور وتهدأ حسب قوة المرض

النشطة والأوضاع العلاجية والنفسية والاجتماعية، يحدث المرض على الأغلب في الأشخاص، ما بين الأعمار 16 – 30 ذكور و 25 – 30 إناث.

يقول الدكتور أحمد عكاشة أستاذ الطب النفسي:

المرض قد يصيب العباقرة، مثل الدكتور جون ماش الحاصل على جائزة نوبل في الفيزياء، حيث كان يسمع هلوسات وأصوات، فكثرة التفكير تؤثر على كيمياء المخ، بهذه الحالة يجب احترام اعتقاد مرضى الفصام إلى حين علاجهم (وهذا ما يسمى بالاضطراب الوجداني ثنائي القطب)، وقد يؤدي إلى الجنون أو الانتحار.

إن أصاب مرض الفصام شخصًا، لمدة تطول أكثر من عشر سنوات فلا علاج له، قد لا يسوء ولكن لا يتحسن.

أعراض مرحلة الفصام النشطة:

1- ضلالات.
2- هلوسات.

3- كلام مفكك غير مترابط يصل حد التأتأة.

4- عدم انتصاب السلوك والتخشب في بعض الحالات

5- تناقض الوجدان، ضعف الإرادة، تناقض الحركة والكلام.

6- قد يدمن مريض الفصام المخدرات والخمر ومن ثم ينتحر.

7- نقص الأداء الوظيفي والاجتماعي، وعدم الاهتمام بلباسه.

(إذا استمرت الأعراض أكثر من ستة أشهر فهي فصام).

أنواع الفصام:

1- الفصام البرانودي.

2- الفصام غير المنتظم.

3- الفصام الكتالوني النادر.

4- الفصام غير المتميز.

5- الفصام المتبقي.

ملاحظات عن المرض:

1- العلاج النفسي والاجتماعي والتأهيلي، أهم من العلاج الدوائي رغم ضرورته.

2- في حياة مريض الفصام تمر فترات عديدة من الانسحاب والخمول للمرض، يعاودها ثورة وهيجان

3- مريض الفصام يتحذلق بالحديث عن الدين والفلسفة بمبالغة، وقد ينتمي إلى أحد الجماعات المتطرفة إمعانًا في التمرد.

4- أثناء المرحلة النشطة للمرض، لا تجب مواجهة المريض بعدم صحة تفكيره وتصرفاته.

5- لدى مريض الفصام قناعات غير حقيقية، قد يعتقد نفسه ملكًا أو مطاردًا أو هتلر نفسه، أو أن هناك من يتكلم معه ويلمسه، أو هناك شيطان في جسده يتحكم به.

6- المرحلة الحادة من المرض تتطلب مع الأدوية، إدخاله إلى المشفى وجلسات علاج كهربائية.

أسباب ظهور مرض الفصام (الشيزوفرينيا):

أولاً: الجينات والظروف البيئية من سوء تغذية، إلى مشاكل وراثية وظروف نفسية واجتماعية، كفقدان عزيز أو خسارة، تعاطي الممنوعات والخبرات الجنسية الفاشلة، وتعرض الطفل إلى مؤثرات سلبية نظرية ليدز(LIDS).

ثانيًا: اضطراب وظيفة مركز السيطرة الدماغية، الذي يتلقى المعلومات من الخارج.

حقائق محزنة عن مرض الفصام:

1-شخص واحد من كل شخصين مصابين بالفصام لا يتلقون الرعاية الطبية المناسبة، أي نصف المصابين.

2-الفصام يصيب الملايين ويؤثر على حياتهم، لكن نظرة المجتمع الخاطئة تبعد فكرة العلاج النفسي.

3-الفصام يحتاج علاجًا طوال الحياة، وإن تراجع المرض.

4-خطر التوريث حسب الدراسات 8٪.

5-تتباين الآراء المطروحة في الفصام (المرض ذو الألف وجه)، فليس هنالك أسباب مؤكدة ولا علاجات ناجعة 100٪، عدد الأبحاث تجاوزت الآلاف، كما هناك مئات المراجع والكتب التي ألّفت بذلك الصدد كل حسب مدرسة الطب النفسي الذي ينتمي لها الدكتور أو الباحث ويبقى الفصام عصيًا.

***

لمحة عن متلازمة تململ الساقين:

هي اضطراب في الجهاز العصبي المركزي، حيث تتسم هذه المتلازمة بعدم الراحة في الساقين، عند تحريكهما مع مرافقة الإحساس بالوخز تحت الجلد، ليس هناك سببًا معروفًا واضحًا لهذه المتلازمة، إلا أن الباحثين وجدوا أنها ربما تكون ناتجة عن اختلال توازن الدوبامين الكيميائي للمخ، وهو الذي يرسل رسائل تحكم، يتحكم في حركة العضلات.

***

لمحة عن أمة النسناس (أنصاف البشر)

" ما بين الأسطورة والحقيقة "مخلوقات سريعة، تشبه الإنسان شكلاً وهيئة، وليست بإنسان. لها رجل ويد واحدة من شق واحد، ينقرون كما ينقر الطير، ويرعون كما ترعى البهائم، يعيشون في الأرض فسادًا وسفك دماء، يتكلمون العربية، استوطنوا الأرض قبل آدم عليه السلام، والله أعلم.

***

المراجع:

_ 100 سؤال عن الفصام، د. إبراهيم بن حسن الخضير.

_ الفصام، د. طارق الحبيب.

_ الطب النفسي المعاصر، د. أحمد عكاشة.

_ المجالسة وجواهر العلم، الجزء الأول، أحمد بن مروان المالكي.

_ لسان العرب، الجزء السادس، محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي.

***

صدر للكاتبة عنان رضا المحروس:

- مجموعة قصصية بعنوان " أغدًا ألقاك" 2017.
- اسكتش مسرحي " الجوكر"2018.
- رواية "خُلِقَ إنسانًا" طبعة أولى 2019.
- مجموعة نثرية بعنوان "تَرَجّل"2019.
- سلسلة حكايات ماما عنان (للأطفال)2020.
- رواية "خُلِقَ إنسانًا" طبعة ثانية منقحة 2021.

تحت الطبع

- رواية "أنا مريم" تحت الطبع.

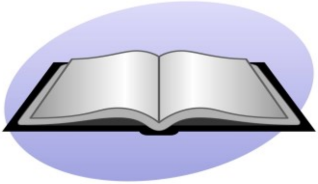

الفهرس

الموضـــــــــــوع	رقم الصفحة
إهداء	5
شكر	6
الفصل الأول (آدم)	
بداية النهاية	7
الميلاد	13
الأسرة	18
التسول	27
البلوغ	37
الباشا	45
الهاوية	58
شيزوفيرينيا	71
الهروب	88
الشيخ عماد	97
الثانوية العامة	107
صيدا	118

سلمى 127
الرحيل 141
الشرارة 155
الموت 174
الزواج 194
نهاية البداية 213

الفصل الثاني (مريم)

الحقيقة 239
دراسة مختصرة عن مرض الفصام 273
لمحة عن متلازمة الساقين 279
لمحة عن أمة النسناس 280
المراجع 281
إصدارات الكاتبة عنان محروس 282
الفهرس 283